شخصيات مجمعية

فى الســاعة الحادية عشرة من صباح الأربعـاء ٣ من جمـادى الآخرة سـنة ١٤٠١ هـ (الموافق ٨ من ابريل سنة ١٩٨١ م) أقام المجمع حفل استقبال لعضوه الجـديد الدكتور توفيق الطويل ، وفيما يلى الكلمات التى ألقيت فى هـذا الحفـل :

كلمة الافتتاح للدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع

سيداتى سادتى :

لقد عرفت الزميل توفيق الطويل منذ أربعين سنة أو يزيد يوم أن لقيته بكلية الآداب بجامعة القاهرة عام ١٩٣٧ م .

وأشهدكم أن توفيق الطويل الذى عرفته فى ذلك التاريخ هو نفسه توفيق الطويل الذى نستقبله اليوم : أدب جم ، تواضع تام ، تفكير واضح ، روية وخلق سمح . ألف الصمت لايتكلم إلا بحساب وقدر .

توفيق الطويل الذى لقيته فى ذلك التاريخ حين كنا نعد لبسط الدراسات العقلية فى المدارس الثانوية ، وكان ذلك على أثر تقرير لراحل كريم هو المرحوم نجيب الهلالى وأعتقد أن هذا التقرير يعد من الخطوات الأولى الجادة فى تطوير التعليم العام . والنهوض به . وقد شاء الجامعيون حينذاك أن يعدوا العدة لتطبيق هذا التقرير وهذا الإصلاح

وكان توفيق الطويل من الرعيل الأول الذى اضطلع بهذا العبء لكى يقدم الفكر الفلسفى للشباب فى أسلوب مقبول ولغة سهلة . كان يحسن العطاء، وهو صناعته فى مصر وخارجها .

أعطى فى مصر وفى البلاد العربية . درّس وحاضر ، وكتب ، وألّف ولم يقف عطاؤه عند الجامعات ، بل كان له عطاء قديم فى مجمعنا هذا . فهو عضو فى لجنة الفلسفة والعلوم الاجتماعية . وأنا على يقين من أنه سيتابع العطاء ، ولا أدل على ذلك من أنه يوم أن فكرنا فى إخراج جهود لجنة الفلسفة بإصدار معجم فلسفى ، كان توفيق الطويل هو الذى أشرف على هذا الإخراج. اضطلع به مع زميل آخر من أبناء هذا المجمع هو الأستاذ سعيد زايد .

هذا هو توفيق الطويل فى هذه الصورة المختصرة التى حرصت على أن أستقبله بها .

كلمة الأستاذ بدر الدين أبو غازى

فى استقبال الدكتور توفيق الطويل

سيدى الرئيس

السادة الزملاء

سيداتى وسادتى :

من أعز الأيام على مجمعنا ، ومن أرسخها فى تقاليدنا « يوم الاستقبال » ، فهو يوم لقاء المجمعيين بزميل جديد يستبشرون الخير بقدومه ، ويعقدون على انضمامه إليهم الأمل والرجاء .

ولقد أنابنى المجمع فى استقبال العضو الجديد الأستاذ الدكتور توفيق الطويل ، وهو شرف أعتز به ، ومهمة أرجو أن أوفق فى أدائها .

واستقباله اليوم يذكرنى باستقبال سلفه الصالح ، من أصحاب الفلسفة وروادها فى مصر ، هؤلاء الذين شرف المجمع بوجودهم . وحظى بالمجيد من آثارهم .

استقبل المجمع عند إنشائه الأستاذ الدكتور منصور فهمى أحد أساتذة الزميل الجديد الأستاذ الدكتور توفيق الطويل ، وظل منصور فهمى عضوا بالمجمع وكاتبا لسره حتى اختاره الله إلى جواره .

ثم استقبل المجمع معلم الجيل ، ورائد التعريف بالفلسفة اليونانية . الأستاذ أحمد لطفى السيد : الذى اختير عضوا بالمجمع سنة أربعين ، وكان رئيسه الثانى منذ العام الخامس والأربعين حتى رحل عن عالمنا .

واستقبل المجمع مع معلم الجيل الشيخ الجليل الأستاذ مصطفى عبد الرازق ، الذى سعد المجمع بعضويته فى السنوات السبع الأخيرة من حياته وهو شيخ زميلنا الجديد قدووته ومثله الأعلى .

وفى سنة ست وأربعين كان رئيس مجمعنا الأستاذ الجليل الدكتور إبراهيم مدكور أحد العشرة الطيبة الذين استقبلهم المجمع ولايزال يعتز برياسته له .

وظل المجمع يترقب استقبال فيلسوف جديد حتى ضم إلى عضويته الأستاذ الدكتور عثمان أمين الذى سعدنا بزمالته حينا .

وإن استقبالنا للأستاذ الدكتور توفيق الطويل ليضفى علينا سعادة خاصة ، إذ نحظى بعضو جديد من رجال الفلاسفة .

ومن حظ هذا المجمع أن يكون أعضاؤه من الفلاسفة أهل لغة ، ورجال أدب ، وأن يكونوا جميعا من الموفقين بين التخصص العلمى وبين المشاركة فى حياة مجتمعهم .

كذلك كان شأنهم ، وكذلك أيضا شأن زميلنا الجديد ، فهو خير خلف لسلف من الأساتذة العظام الذين توارداعلى هذا المجمع .

تخرج الدكتور توفيق الطويل فى كلية الآداب سنة أربع وثلاثين من هذا القرن حين كانت الأزمة الاقتصادية آخذة بخناق مصر والأزمة السياسية ضاربة الأطناب ، فدستور الأمة معطل ، ونظام الحكم رجعى ، والاحتلال البريطانى متوغل فى البلاد بقوة .

وكانت مجالات العمل تضيق بخريجى الجامعة ، وأمل المستقبل تكتنفه غيوم .

وإذا كان هذا هو شأن الجامعيين فى تلك الحقبة ، فما بال أصحاب الفلسفة ؟

كان على الصحاب أن يتفرقوا وينتشروا فى الأرض سعيا وراء الرزق فى ظروف شاقة ، ولكنهم يحملون – رغم هذه الظروف – بشارة الأمل ، فهم يكتبون ويخطبون ، ويتخذون من أعلام العصر رواداً من بينهم من اتبع طه حسين ، وفيهم من اتخذ طلعت حرب قدوة ، أما أصحاب الفلسفة فقد جعلوا من شيخهم مصطفى عبد الرازق إماماً يقتفون أثره ويترسمون خطاه ، ومن هؤلاء زميلنا الجديد .

ولقد شارك توفيق الطويل فى الحركة الوطنية فى الثلاثينيات خطيبا وكاتبا ، وحمل مع زملاء له فكرة الدعوة إلى التحرر الاقتصادى من سيطرة رأس المال الأجنبى على مقدرات مصر ، واتخذوا لدعوتهم اسما مبشرا بالأمل والرجاء «عيد الوطن الاقتصادى»

واستطاع توفيق الطويل ، وهو من نعرف وثوقا وتمكنا ، أن يتفوق على الظروف والأوضاع المحيطة به ، وأن يدخل الجامعة من أبوابها متميزا منذ صدر عهده بالتدريس فى جامعة القاهرة ، ثم فى جامعة الإسكندرية ومرة أخرى فى جامعة القاهرة .

ولم يقنع فى تلك المرحلة الباكرة بالجانب العلمى المتخصص ، بل كان الجانب الاجتماعى والثقافى شاغلا له ، فأنشأ جمعية للمحاضرات والمناظرات اشترك فى نشاطها من كبار المفكرين والأدباء الأساتذة : عباس العقاد وأحمد أمين ، وإبراهيم مدكور ، والآنسة مى ، وعبد الرحمن الرافعى ، وأنطون الجميل ، وإسماعيل مظهر ، وتوفيق دياب ، وإبراهيم سلامة ، وإبراهيم ناجى .

وهكذا أدخل فى محيط الجامعة نشاطا فكريا وثقافيا عاما أسهم فيه كبار المفكرين مع الأساتذة والطلاب .

وظل توفيق الطويل قوّاما على رسالته الجامعية ، وامتد أثره وفضله إلى جامعات عربية أخرى فاختارته الجامعة الليبية أستاذا بها سنة ستين ، ثم استقر به المقام أستاذا بجامعة الكويت لست سنوات بين سنتى ثمان وستين وأربع وسبعين ، ودعته جامعات البصرة ، وبغداد ، وقطر ، أستاذا زائرا تقديرا لمكانته العلمية ، فترك إلى جانب أثره العلمى أثرا عاما بمحاضراته الثقافية .

ولقد ظل الجمع بين الخاص والعام من سمات توفيق الطويل ومن الخصائص التى تميز بها ، فهو نموذج الأستاذ الجامعى الذى

يدرك ما للجامعة من رسالة فى المجتمع إلى جانب رسالتها العلمية الخالصة . وهو يستجمع خبرته وتجاربه ويقدمها خالصة للمؤتمرات والمجامع والمجالس العليا للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، ثم للمجلس الأعلى للثقافة مقررا للجنة الفلسفة والاجتماع .

ولقد حرص الأستاذ الدكتور توفيق الطويل على ألا يقصر جهده على التدريس والمحاضرة والمشاركة فى الحياة العامة بل أقبل كذلك على التأليف والترجمة .

ولعل طبيعة توفيق الطويل وخصائص نفسه ومُثُله هى التى حفظته من مرض أصاب الجامعات : فجذب من أساتذتها من جذب إلى بريق المناصب فى مواقع أخرى غير علمية فخسرت الجامعة وخسر البعض أنفسهم .

أما توفيق الطويل . فظل بعيدا عن مواقع السلطان قريبا من العلم فى مظانه ، وبهذا أعطانا هذا الصرح الكبير من مؤلفاته .

ويكفى أن نتأمل ثبت إنتاجه العلمى لنتبين فضل هذا العالم الجليل .

صحب هذا الإنتاج حياته الحافلة ، فأصدر فى البدء كتاب « الأحلام فى الفكر الإسلامى » بتقديم من أستاذه مصطفى عبدالرازق الذى صوره أصدق تصوير فى عباراته التالية :

« الأستاذ توفيق الطويل باحث مدقق يريد أن يصل بعقله إلى بواطن الأمور وظواهرها وأوائلها وأواخرها ، هو يعتمد على « العقل » صرفا . ويريد أن يؤثر فى عقول الناس لا فى قلوبهم ، أدركت هذا المعنى حين قرأت مؤلفات الأستاذ الطويل ومنها مؤلفات تتصل بالتصوف والمتصوفة ؛ والتصوف علم القلوب ، وندرك هذا المعنى حين نقرأ من جديد هذه الرسالة — الأحلام — وقد قرأتها من قبل . وناقشت صاحبها ، وسجلت شهادتى له بالنجاح الممتاز فى تأليفها ، وفى عرضها على مجلس الامتحان ، وما أزداد إلا رضا عن هذه الرسالة وإعجابا بمجهود المؤلف فى إعدادها أولا ، ثم فيما أدخل عليها بعد ذلك من تعديل وتكميل ، دلالةً على التسامى إلى الكمال ، والبعد عن الفتنة بعلمه والغرور . وكلما ازداد علم العالم ازداد تواضعه ، وكلما ازداد تواضعا ازداد علما » .

هذه هى رؤية الشيخ الجليل لتلميذه ، وهى رؤية صدق وتقدير ومودة .

ولقد شغل توفيق الطويل بعد التراث الفلسفى العربى فأجال فيه النظر وأصدر كتابه « التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام » ، وكتابى « الفكر الدينى الإسلامى فى مائة العام الأخيرة » ، و« الشعرانى إمام التصوف فى عصره » .

كما ترجم فصل الفلسفة والإلهيات فى كتاب تراث الإسلام ، وشارك فى تحقيق كتاب « المغنى » للقاضى عبدالجبار ، وأعد بحثا مطولا مسهبا عن فلسفة الأخلاق الصوفية عند ابن عربى .

وللأستاذ الدكتور توفيق الطويل مؤلفات قيمة أخرى منها :

* مذهب المنفعة العامة فى فلسفة الأخلاق .
* قصة النزاع بين الدين والفلسفة .
* مسائل فلسفية . . ومشكلات فلسفية .
* قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة .
* التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى .
* الفلسفة فى مسارها التاريخى .
* جون ستوارت مل .
* قصة الاضطهاد الدينى فى المسيحية والإسلام .

على أن للزميل الجديد اهتماما آخر بتراث العلم عند العرب ، أولاه جانبا ملحوظا من بحوثه ودراساته . كما صدر له فى مجلة « عالم الفكر » الكويتية بحثان كبيران فى حجمهما وقيمتهما :

الأول : عن خصائص التفكير العلمى بين تراث العرب وتراث الغربيين .

والثانى : لقطات علمية فى تاريخ الطب العربى .

على أنى بعد هذا التطواف أتوقف قليلا عند مؤلفيه العظيمين :

— أسس الفلسفة . الذى صدر منه حتى الآن سبع طبعات .

— وفلسفة الأخلاق ، نشأتها وتطورها وقد بلغت طبعاته أربعاً .

وإنى لأعجب كيف استطاع الأستاذ توفيق الطويل أن يوفق هذا التوفيق بين رسالته أستاذا ومدعما لأقسام الفلسفة والدراسات الفلسفية فى الجامعات العربية ، وبين إنتاجه العلمى الغزير الذى يتطلب تفرغا وجهدا وعناء .

أيكون مرجع هذا ، إلى جانب فضائله وصفاته وخلوص نفسه للعلم ، ما أتيح له من خلوة علمية حين هاجر من مصر إلى الجامعات العربية الأخرى؟أم يكون مرجعه ماتوافر له من حياة كريمة كفلت له أسباب الاستقرار ؟ كما تنبئ عبارات إهداء كتابه « أسس الفلسفة »إلى زوجته الفاضلة وماوهبته من جهد ، وقدمته من عون هيأ له أسباب الصفاء العقلى ، وأتاح له التوفر على العلم .

إن مؤلفى الأستاذ الدكتور توفيق الطويل عن أسس الفلسفة وفلسفة الأخلاق من شوامخ المؤلفات فى تاريخ الدراسات الفلسفية بمصر ، وهما يدلان على خصائص فكره ونفسه ومنهجه .

ففيهما ما يتميز به ؛ من توفيق بين الماضى والحاضر ،من عقلانية فى الحكم على الأشياء ، ومن مثالية أخلاقية رفيعة ، كما أنهما ينبئان عن جهد فى البحث عن حقائق الأشياء وجلائها بعبارات ناصعة ، ورؤية واضحة ،ونزاهة فى الحكم ،ودقة فى التفكير .

يقف المؤلف موقفا حكيما بين دعاة هدم ماضى التفكير الفلسفى ، وأنصار التشبث بالقديم فيقول :

« الأدنى إلى منطق العقل أن نقول مع « ليون روبان » إن إغفال ماضى التفكير ميسور فى العلم نفسه ، وليس هذا هو الحال فى تاريخ الفلسفة فإن تاريخ الفلسفة فلسفة ، وهو يبدو أمام الفيلسوف فى تجدد وتطور متصل ، إلى جانب أنه يسمو على مجرد التوسع فى المعرفة ، والمشكلات التى أثارها القدامى من الفلاسفة لم تزل بعد باقية وستظل باقية دوماً ، لم تتغير موضوعاتها وإن طعمها البحث بعناصر جديدة .

« أما تاريخ العلم فليس جزءاً من العلم نفسه ، إنه ماضى العلم ، هو الجزء الفانى من المحاولات التى قام بها العلماء ابتغاء التوصل إلى الحقيقة ، أو هو الجهد الذى أدركه النسيان بعد أن بلغ أصحابه الغاية المطلوبة منه ، وهذا الماضى يشبع رغبة الطامع فى التوسع فى المعرفة ولا يتجاوز هذا الحد ، أما تاريخ الفلسفة فإنه يكون جزءاً منها ، ويشترك معها فى موضوع واحد ، والجديد فى الفلسفة يقوم عادة على قديم » .

على هذا النحو يوفق توفيق الطويل بين ماضى الفلسفة وحاضرها ، وعلى هذا النهج يمضى فى مؤلفه الكبير باباً إثر باب ، معرّفاً بالفلسفة مجالا ومنهجاً ، وشارحاً للمذاهب والنظريات الفلسفية ، فيعالج مشكلة الوجود ، ويجلو لنا نظرية المعرفة ، ويفرد باباً للقيم العليا ، ثم يلقى ضوءاً على قيم الحق والخير والجمال ؛ ومع اهتمامه بدراسات الفلسفات الغربية فإنه يتحرى كذلك وضع حكمة الشرق القديم وتراث العرب الزاهر فى مكان مرموق من تاريخ الفكر البشرى .

أما كتابه (فلسفة الأخلاق) فيضم أطهر ما عرفته فلسفة الأخلاق ، عبر تاريخها الطويل من قيم إنسانية رفيعة ، وهو يرمى بكتابه إلى هدف أبعد من الدراسة العلمية المجردة إذ يشير فى إهدائه إلى ابنيه « حسام ومنى » ، وأنه قد طاب له أن يهدى الكتاب إليهما عسى أن يجدا فى بطون صفحاته مثلا إنسانياً رفيعاً يشبع العقل ، ويستهوى القلب ، وتكون له الصدارة فى توجيه الحياة ، ذلك لأن توفيق الطويل يستشعر القلق من طغيان الحياة المادية فى عصرنا الحاضر على مدلول المثل العليا ، ومكانها الذى ينبغى أن تحتله من حياة الناس .

وكأنى بالمؤلف يخاطب الجيل كله متخذاً ابنيه عنواناً لهذا الخطاب .

ولقد مضى المؤلف فى عرض فلسفة الأخلاق عند القدماء بدءاً من مؤسس الفلسفة الخلقية فى الغرب سقراط ، حتى فلسفة الأخلاق عند المحدثين ، ويحرص المؤلف أن يفرد باباً لفلسفة الأخلاق فى التفكير العربى فى عصر الإسلام الذهبى . . ثم يختتم كتابه مؤكداً أن الخلاف بين الفلاسفة فى شأن القيم الأخلاقية إنما كان فى تفسيرها وتحليلها ، ومنهج بحثها لدراسة مضمونها ، وبعد هذا الخلاف يلتقى جميع فلاسفة الأخلاق فوق أرض واحدة ، وتحت راية واحدة ، تقديراً للقيم الأخلاقية

واستغراقاً فى إكبارها ، حتى الذين ظن البعض خطأ أنهم يمثلون النزعة اللاأخلاقية فى فلسفة الأخلاق ، كانوا فى الحقيقة يهدمون قيماً بدت لهم هزيلة بالية عسى أن تأخذ مكانها قيم أصلح وأسلم .

ويعود المؤلف فى ختام الخاتمة فيقول :

« ما أصدق أن يقال : إن الإنسان هو الكائن الأخلاقى الوحيد ، لأنه — من بين سائر الكائنات — هو وحده الذى يمكن أن يضيق بواقعه ، ويتطلع جاداً واعياً إلى ما ينبغى أن تكون عليه حياته ، وهو وحده الذى يخطط لمستقبله ، وبذلك كان من الحق أن يقال : إن الإنسان لا يكون إنساناً ، مميزاً من سائر الكائنات بغير مثل أعلى يدين له بالولاء » .

تنبىء مؤلفات الأستاذ توفيق الطويل بأن له إلى جانب غرامه بالفلسفة غراماً آخر فى اللغة تدل عليه عباراته ، وعنايته بأن يضم إلى كتابيه معجماً فى ترجمة المصطلحات والمذاهب والمسائل التى تناولها .

لقد استنزف زميلنا الجديد فى إعداد مؤلفاته جهداً كبيراً ولكن المؤلفين فى مصر يعتصرون فكرهم ويجودون علينا بروائعهم ولا يلقون عن جهدهم إلا الصمت .

لقد قرأت عن مؤلفات الدكتور توفيق الطويل صفحات كاملة من التقييم والتقدير فى جريدة النهار البيروتية ، وغيرها من الجرائد التى تصدر فى البلاد العربية ، ولكنى لم أقع على تعليق واحد عن هذه المؤلفات فى صحفنا بمصر .

رحم الله زماناً كانت الصحيفة المصرية فيه منبر الرأى والفكر ، وملتقى قصائد الشعراء وأدب الكتاب وفكر المفكرين .

لقد طغى الإعلان والخبر على الصحيفة ولم يدع للفكر إلا أعمدة تختنق بين صفحات الإعلان التجارية .

وليت المجلات الثقافية بقيت لنا لتسد هذا الفراغ .

لقد كان لنا منذ سنوات مجلة « المجلة » و « الفكر المعاصر » و « الكتاب العربى » ومجلات كانت تربطنا بتيارات الثقافة ، وبالجديد من عطاء الفكر ، ولكنها احتجبت فجأة ولم نستعض عنها بالبديل .

أيها الزميل العزيز :

وإذ أختتم كلمات الترحيب بك تتدافع إلىّ الذكريات والخواطر ، وأستحضر زماناً بعيداً كنا نلقاك فيه ونستمع إلى أحاديثك فى مجلس خاص فنعجب بوضاءة فكرك ،

ورجاحة ذهنك ، وهدوء نفسك ، وكم كان لهذه الأحاديث من وقع فى نفوسنا يردها إلى الطمأنينة ، ويسبغ عليها السكينة ، ويفتح لها أبواب الأمل .

واليوم ، إذ أستقبلك ، أراك كما كنت فى هذا الزمن البعيد ، وقور السمت سمح الملامح ، مستضيئاً بالحكمة والمثل . . فيك من شباب الفكر وحيويته ما يلوح وكأنه على مر السنين يزيد .

لقد اتخذت لنفسك من عطائك ونضج عقلك وذكاء قلبك مكانة فى حياتنا الفكرية .

وأحسب أن المجمعين ، إذ يستقبلونك اليوم ، يستبشرون الخير بمقدمك إلى مكانك بينهم لتضم جهدك إلى جهدهم وتسعى سعيهم الجاد النبيل .

وأنت أهل لهذا الجهد وذلك السعى .

وفقك الله وأثابك عن عطائك العظيم .

بدر الدين أبو غازى
عضو المجمع

٣ - كلمة الدكتور توفيق الطويل

سيادة الرئيس

سيداتى . . سادتى :

كان أملا بعيد المنال أن أنضم إليكم ، وأن أمثّل بين يديكم فى مجمع الخالدين ، وكانت مفاجأة سارة أن أعلم بهذا النبأ على غير توقع ، فكان فضلا غامراً من أئمة العربية ، وقادة الفكر والأدب أن يرونى خليقاً بثقتهم وحسن تقديرهم ، جزاهم الله خيراً ، ووفقنى إلى أن أكون أهلا لثقتكم الغالية . لكن تبعات هذا الاختيار ينوء بحملها الصفوة الممتازة من العلماء ، فكيف لمثلى - مع عجزى وقصورى - أن يقوم بعبء هذه التبعة ؟ ولكنى أعاهدكم أن أبذل أقصى الجهد فى الإسهام معكم فى تحقيق الرسالة الكريمة التى أخذتم أنفسكم بتحقيقها ، عسى أن أكون عضوا جديراً بشرف الانتساب إلى المجمع الموقر ، حالفكم التوفيق لقاء ما تبذلون من جهد فى خدمة لغة القرآن الكريم ، ولكم الجزاء الأوفى .

وإنى لأتوجه بالشكر فى هذه الفرصة الطيبة إلى الأستاذ الدكتور رئيس المجمع ، وإلى السيد الأستاذ بدر الدين أبو غازى للتقدمة الطيبة التى قدمانى بها إلى حضراتكم وشاء فضلهما أن يضفيا على من الثناء المستطاب ما أرانى غير أهل له ، وأراهما أجدر به منى جزاهما الله كل خير .

وبعد : فإن لغتنا العربية قديمة ضاربة فى القدم ، يحرسها ويمكّن لها القرآن الكريم والمشتغلون بدراساته ، وهى تجمع بين الناطقين بها فى شتى بقاع العالم العربى وخارجه ، تذكرنا بتراثنا وقوميتنا ، وتحملنا على أن نولى وجوهنا شطر مستقبل واحد ، إنها تصل بين ماضينا وحاضرنا ، وتهيء لمستقبلنا ، فنغضب لشرفنا ونثأر لعزتنا .

وقد أثبت استقراء تاريخ الفكر منذ نحو ثلاثة عشر قرناً من الزمان أنها لغة علم وفن وفلسفة وحضارة ، يقول ألدوميلى Oldo mielei ، أكبر المستشرقين الذين أرّخوا العلم العربى - طبيعياً ورياضياً - يقول :

« إن منتصف القرن الثامن للميلاد كان نقطة تحول فكرى بالغ الأهمية فى تاريخ العقل البشرى » ، ففى ذلك التاريخ نشأ حكم بنى العباس فى المشرق العربى ، وبدأ حكم الأمويين فى المغرب العربى - وأقصد به بلاد الأندلس تحت حكم العرب . ففى المشرق العربى بدأت منذ ذلك التاريخ - منتصف القرن الثامن للميلاد - حركة ترجمة واسعة النطاق نقل فيها العرب إلى العربية تراث اليونان والهنود والفرس وغيرهم من مؤسسى الحضارات القديمة ، وبهذا غذوا تراثنا العربى بتراث الأقدمين من مؤسسى الحضارات ، وسرعان ما تفاعل ذلك التراث الأجنبى الدخيل مع تراثنا العربى الأصيل ،

فكان تجديداً وأصالة وابتكاراً شهد به المستشرقون الذين بهرهم عصر الإسلام الذهبي، فأشادوا به وبمجدوا ما وجدوا من كنوزه، واستمرت حركة الترجمة إلى العربية - كحركة أمة أو مدرسة - قرناً ونصف قرن من الزمان، نقل خلالها العرب حضارة الأقدمين ومصطلحاتهم فى الفلسفة والعلوم، وما زال المتخصصون منا فى شتى فروع المعرفة العلمية يستخدمون مصطلحات نقلها العرب فى تلك الفترة، وهذه شهادة قاطعة بأن لغتنا قد اتسعت للإبانة عن حضارات الأقدمين ومصطلحاتهم الفنية، بل قد أصبح من عمل المجمع الموقر إحياء المصطلح العربى القديم ما أمكن.

بذلك أثبت استقراء تاريخ الفكر أن لغتنا لغة علم وفن وفلسفة وحضارة.

هذا فى المشرق العربى، أما فى المغرب العربى - وأقصد به بلاد الأندلس، تحت حكم العرب - فقد ازدهرت الحركة العقلية فى الأندلس منذ القرن الحادى عشر، متأخرة عن نظيرتها فى المشرق العربى، لأسباب لا مجال لذكرها الآن، وشاع النور فى حواضر الإسلام الأندلسية، منذ ذلك التاريخ وكان هذا فى وقت تغط فيه أوربا فى سبات عميق من الجهالة والتخلف، وقد استلفت النور العربى نظرها، فهمت باليقظة فى ضوئه، وتتلمذ علماؤها على يد علماء العرب، وبدأ هذا فى حركتين من حركات الترجمة التى نقلت فيها أوربا تراث العرب من العربية إلى لغتها العلمية وهى اللاتينية فى ذلك الوقت.

أما حركة الترجمة الأولى: فقد بدأت فى صقلية فى النصف الأخير من القرن الحادى عشر، وكان رائد هذه الحركة هو قسطنطين الإغريقى الذى توفى عام ١٠٨٧

أما الحركة الثانية فكانت فى أسبانيا، وكانت أوسع نطاقاً وأكثر شمولا، ترجمت فيها أوربا التراث العربى العلمى والفلسفى إلى لغتها وهى اللاتينية فى ذلك الوقت، وقد بدأت فى طليطلة فى النصف الأول من القرن الثانى عشر، وكان رائد هذه الحركة المونسنيير ريموند كبير أساقفة طليطلة، فقدر للتراث العربى الإسلامى أن يُنْقَل إلى أوربا على يد رجل من كبار رجال الكنيسة، فى وقت كانت الكنيسة فيه تشعل نيران الحروب الصليبية لتقضى على الإسلام والمسلمين باسم الدين المسيحى، دين المحبة والسلام والتسامح!

وفى هاتين الحركتين نقلت أوربا التراث العربى الحضارى إلى لغتها العلمية، وكانت العربية هى الوعاء الذى ضم ذلك التراث الحضارى كله، فأثبتت بهذا أنها لغة علم وفلسفة وفن وحضارة.

وإذا كان هناك من المؤرخين الغربيين من يرجع الحضارة الأوربية الحديثة كلها إلى اليونان، ويقول عن تراثهم الفلسفى وماضيهم من مختلف العلوم: إنه المعجزة اليونانية، ويقصدون بها أنها كانت خلقاً عبقرياً أصيلا جاء على غير مثال.

وإذا كان قد أيد هذا أكثر الباحثين الغربيين من أمثال برتراند رسل، فإن من الباحثين الذين أكبوا على دراسة التراث العربى منذ مطلع العصور الوسطى من يعارض المعجزة

اليونانية بما أسماه بالمعجزة العربية ، وكان فى مقدمة هؤلاء : جورج سارتون G. Sarton أكبر مؤرخى العلم فى عصرنا الحاضر ، ويفسر جورج سارتون ما يقصده بالمعجزة العربية فى كتاب (الشرق الأدنى . . الثقافة والمجتمع) .

"Near East, Culture and society"

فى بحث ألقاه فى مؤتمر نظمته جامعة برنستون بالولايات المتحدة ، وفيه يقول : إن فى وسعنا أن نتحدث عن معجزة الثقافة العربية كما نتحدث عن معجزة الثقافة اليونانية ، ويكون معنى المعجزة فى الحالين واحدا ، وقد يرى البعض أن فى هذا مبالغة وغلوا ، لكن الذى حدث فى بلاد اليونان ، ثم فى بلاد العرب ، كان من الغرابة بحيث يحمل الإنسان على التطرف فى التعبير .

وكذلك فى كتاب آخر هو :

History of Science and new Humanism

أى تاريخ العلم والنزعة الإنسانية الجديدة ، يفسر ما يقصده بالمعجزة العربية فيقول :

« إن خلق حضارة عالمية جديدة شاملة فى أقل من قرنين من الزمان ، لأمر يمكن وصفه ، ولكن من المستحيل تفسيره وتحليله على نحو مقنع ... إن هذه حركة خلاقة تتميز بالأصالة والإبتكار ، بل كانت أعظم حركة علمية تتصف بالأصالة منذ مطالع العصور الوسطى حتى نهاية القرن الثالث عشر . . . ومنذ منتصف القرن الثامن للميلاد حتى نهاية القرن الحادى عشر ، فكانت الشعوب الناطقة بالضاد تتقدم موكب الحضارة فى الدنيا بأسرها ، ويرجع الفضل إلى علمائها العرب فى أن لغة القرآن المقدسة قد أصبحت لغة العلم العالمية ، وأداة التقدم الإنسانى . وإذا كنا — نحن الغربيين — نرى اليوم أن أقصر طريق يسلكه الرجل الشرقى إلى تحصيل المعرفة هو أن يتمكن من معرفة لغة من لغات الغربيين الرئيسية ، فكذلك كانت اللغة العربية بالنسبة للغربيين إبان تلك العصور ، كانت المفتاح ، بل يكاد يكون المفتاح الوحيد الذى يفتح باب الثقافة الواسعة الجديدة . . . إلخ » .

هذا هو رأى مؤرخ العلم الذى اعترف بأنه حين بدأ فى إعداد مادة لمقدمته المعروفة فى تاريخ العلوم أغفل شأن العرب مجاراة لمن يرون أن تراثهم هو تراث اليونان فى ثوب عربى ، فلما أخذ يدرس التراث العربى ويتعمق فهم أسراره ، أدرك خطأه وعدل عن منهجه ، وأولى العرب من التقدير البالغ ما جعله يصف تراثهم بالمعجزة العربية ، ليقابل بينها وبين ما سموه بالمعجزة اليونانية .

وإذا كان سارتون قد أشار فى نصه إلى أن العلم العربى كان مزدهراً من منتصف القرن الثامن للميلاد حتى نهاية القرن الحادى عشر ، فإن غيره من الباحثين الغربيين ، وفى مقدمتهم « ول ديورنت » W. Durant وغيره ، يرون أن عصر الإسلام الذهبى يمتد خمسة قرون من الزمان تبدأ بمنتصف القرن الثامن وتمتد إلى منتصف القرن الثالث عشر ، عند غزوات التتار لبغداد عام ١٢٥٨ م . ونحن نعرف ما فعله التتار حين ألقوا بذخائر

المكتبات فى نهر دجلة ، وكان الناس والخيول تعبر النهر فوق الكتب التى سدت مجرى النهر ، وسودت مياهه بمداد المخطوطات ، ولكن هذا لم يقوض الحضارة الإسلامية ، بل يقول المستشرقون : إن أوربا قد توقفت عن نقل التراث العربى منذ ذلك الغزو الوحشى ؛ أما الحضارة الإسلامية فقد استمرت بعد ذلك ؛ إذ انتقل القبس إلى دمشق ثم إلى القاهرة ، وظل القبس فى يدها إلى يومنا الحاضر ؛

وبعد : فلا غرابة بعد هذا أن ينشأ فى القاهرة ، إبان القرن العشرين مجمع الخالدين ؛ ليقوم على رعاية العربية بكل مضامينها : لغوياً وعلمياً وفنياً وفلسفياً وحضارياً . ولا سيما وأن الغرب المسيحى الذى يقود اليوم حركة التقدم فى العالم قد بدأ ينصف العرب بعد ظلم وإجحاف .

ويفسر مؤرخو الفكر هذه الظاهرة ، وهى تطور نظرة الغربيين إلى العرب ودورهم فى بناء الحضارة الإنسانية ، فيقولون : كان المستشرقون فى القرن التاسع عشر يستبد بهم التعصب الدينى والتحزب الجنسى ، ومن هنا استخفوا بدور العرب فى بناء الحضارة الإنسانية ، فزعموا أنها لا تدين بالفضل لغير أجدادهم من اليونان ، وأكدوا تفوق الجنس الآرى الأبيض على غيره من الأجناس ، وسبق أوربا فى الخلق الحضارى على غيرها من القارات . . . وقالوا : إن العرب وقد انحدروا عن الجنس السامى لم يخلقوا بطبيعتهم للتفكير الأصيل المبتكر ، وأن ما ضمه تراثهم من عناصر الفكر الأصيل دخيل عليهم غريب عنهم ، بل إنهم لم يحسنوا فهم ما نقلوا من التراث القديم ولم يستوعبوا كنوزه ، فشوهوه بشروحهم ، وأتلفوا حقائقه بتعليقاتهم ... إلى آخر مزاعمهم ، لكن هؤلاء الغربيين قد أخذوا منذ أواخر القرن التاسع عشر وإبان القرن العشرين يكبون على البحث فى تاريخ العلوم عند العرب ، فأدركوا مكان العلم العربى على خريطة العلم العالمى ، وكان فى مقدمة هؤلاء : جورج سارتون الأمريكى ، والإيطاليان ألدومىلى (مؤرخ العلم العربى) ، وكارلو ألفونسو نللينو (مؤرخ علم الفلك عند العرب) ، وجوليان ريبرا الأسبانى ، مؤسس ورئيس مدرسة أيبريا الحديثة للعلوم العربية ، وماكس مايرهوف المتجنس بالجنسية المصرية . . . وغيرهم من أعضاء المجمع العالمى لتاريخ العلوم ، وقد انتشر الكثير من معاهد العربية وعلومها فى أوربا وأمريكا لدراسة ذلك التراث العربى ، ودور العرب فى تأسيس الحضارة الإنسانية ؛ ومن هنا عرف الغربيون مكان العلم العربى على خريطة العلم العالمى ، وكشف الباحثون من الغربيين فى بحوثهم العلمية ؛ وندواتهم الدولية ومؤتمراتهم العالمية — كشفوا عن وثائق ونصوص رفعت الحواجز بين الأجناس ، وأثبتت أن الحضارات الكبرى على اتصال وتفاعل بعضها مع بعض ، وأيدت الدعوة الجديدة هيئة اليونسكو (وهى منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة)

بجهودها ومؤتمراتها ، حتى أن رئيس قسم اللغات الشرقية وآدابها بجامعة برنستون ، وهو كولر يونج Culer Young ألقى بحثاً عن ديْن الغرب المسيحي للثقافة الإسلامية ، فاختتمه « بتذكير مسيحيي أوربا المعاصرة بالدين الثقافى العظيم الذى يدينون به للإسلام منذ أن كان أجدادهم يسافرون إلى حواضر الإسلام، خاصة فى أسبانيا (بلاد الأندلس) ليتلقوا على أيدى معلميهم من المسلمين الفنون والعلوم وفلسفة الحياة ، وفى جملة ما يتلقونه ، التراث الكلاسيكى القديم الذى أحسن الإسلام رعايته ، وصانه من الضياع حتى استطاعت أوربا أن تسترده وترعاه ... » لقد قيل هذا البحث فى ندوة عالمية عن الثقافة الإسلامية عقدت فى برنستون وواشنطون عام ١٩٥٣ م .

وبعد أقل من عامين (١٩٥٥) ظهرت ترجمة بحوث الندوة فى كتاب بالعربية تحت عنوان : « الثقافة الإسلامية المعاصرة، بحوث ودراسات إسلامية » . وكان مترجمها هو العالم الذى يلاحق المستشرقين فى أقصى الأرض ويتتبع بحوثهم ودراساتهم وينقل منها لقراء العربية ما يراه صالحاً ومفيداً لهم ، ذلك هو عالمنا المجمعى الأستاذ الجليل «محمد خلف الله أحمد » . دعواتنا إلى الله تعالى أن يهبه الصحة والعافية ، وأن يحفظه من كل سوء ، لكى يواصل عطاءه للعلم وطلابه .

وسار فى هذه الدعوة الجديدة المستشرقون الذين شاركوا فى سلسلة التراث القديم والوسيط منذ أن صدرت أولى حلقاته عن تراث اليونان عام ١٩٢١ م وتلته بقية حلقات هذه السلسلة ، فأفردوا كتاباً منها لتراث الإسلام ، شارك فى كتابة فصوله الكثيرون من المستشرقين ، وقد ترجم جزءاً منه بالقاهرة لجنة الجامعيين لنشر العلم عام ١٩٣٦م، وشرفت بأنى كنت مقرر هذه اللجنة ، وترجم بعض زملائنا فى جامعة الكويت جزءاً آخر ، وكان فى مقدمتهم زميلنا الدكتور حسين مؤنس أحد أعضاء لجنة الجامعيين السالفة الذكر .

ومن عجب أن يكون هذا هو فضل المستشرقين على لغتنا العربية وتراثها ، ومع ذلك يحلو للبعض منا أن يعتبروا أن بعض هؤلاء المستشرقين قد انحرفوا أو ضلوا ثم ينهالون على جميع المستشرقين طعناً وتجريحاً ، مع أن المستشرقين عامة هم الذين وضعوا أقدامنا على بداية الطريق الصحيح ، وأضاءوا لنا الطريق للكشف عن أسرار لغتنا وكنوز تراثنا .

وهكذا أصبح من المعترف به عالمياً أن لغتنا العربية لغة علم وفن وفلسفة وحضارة ، ومن أجل هذا كانت الاستهانة بها أو عدم الالتزام بقواعدها أو عدم الحرص على إحيائها فى صفائها جريمة ، فى حق الوطن العربى كله .

ومن أسف أن الفصحى قد أصابها خلال القرون السبعة الأخيرة من الضعف والهزال ما أصاب شتى القطاعات فى مجتمعنا العربى ،

فقلّ العلم باللغة وقواعدها حتى بين أكثر المشتغلين بها ، والذين يكسبون قوت يومهم من تعليمها ، فإذا تعذر لسان الجهال منهم فى ضبط كلمة أو إقامة جملة ، دعوا إلى اصطناع العامية أو إهمال الإعراب ، أو إحلال الحروف اللاتينية مكان الحروف العربية أو غير ذلك مما ينم عن جهل أو يكشف عن سوء نية ، يشهد بذلك استخفافهم بلغة القرآن الكريم ، بل إن لغتنا [قـد تعرضت للجمود بسبب تزمت بعض علمائنا السالفين الذين جمدوا بحسن نية ، وقد صدق المرحوم « الأستاذ عباس حسن » حين قال فى مقدمة كتابه « اللغة والنحو بين القديم والحديث » : « إن أدراناً وشوائب خالطت آراء الصفوة الممتازة من علمائنا السالفين » ، منهم « طائفة أحبت لغتها وأسرفت فى الإخلاص لهـا ، وقصرت جهدها على اتخاذ الوسائل لصيانتها ، وهى لهذا جد مشكورة لكنها أخطأت الطريق القويم لذلك ، فزعمته التمسك بالقديم فى غير تسمح ، والجمود عليه فى غير مُلاينَة ، والوقوف عنده فى غير تصرف واجتهاد ، فسنت فى اللغويات ما سنته بغير حجة ساطعة أشباه لهـا فى الشرعيات ، من إغلاق باب الاجتهاد وسد المنافذ أمام العقل ، وقصره على ظواهر النصوص والألفاظ . . . إلخ » .

ولا سبيل إلى تدارك هذه الحال إلا بالإخلاص فى تعليم الفصحى وقواعدها ؛ والتوعية بخطر اللغة فى حياتنا الاجتماعية والعلمية بوجه خاص ، وتقريب العامية من الفصحى ، وإحياء الصحيح من كلماتها فى العربية ، وبذلك يسهل استخدامها حتى على أنصاف الأميين ، وهم الكثرة الغالبة من بنى العرب .

وبعـد : فإنى أعود فأقول : إن اختيارى عضواً بمجمع الخالدين قد هز كيانى واستبد بمشاعرى ، ولم يضعف فىّ هذا الشعور أن المجمع كان قد شرفنى باختيارى خبيراً بلجنة الفلسفة عند إصدار المعجم الفلسفى ، وقد شرفت بالاشتراك فى تنقيحه وإخراجه ، وقد أريد به كما جاء فى مقدمته : « أن يكون معجم مصطلحات فحسب . . . وأنه قام أساساً على الفلسفة الإسلامية والفلسفات الغربية فى كل عصورها ، وحرص على إحياء المصطلح العربى القديم ما أمكن ، وتضمن ألفا ومائتى مصطلح مع مشتقات موادها ... » .
هذا ويسرنى أن أقول : إن لجنة الفلسفة ، والاجتماع بالمجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية قد اضطلعت بوضع الجزء الأول من معجم أعلام الفلسفة والاجتماع ، وهو الآن فى المطبعة ، وهذه اللجنة فى وضعها الجديد فى المجلس الأعلى للثقافة تقوم الآن بإعداد الجزء الثانى من هذا المعجم ، وإن كنا نعانى الأمرين ؛ لقلة المتخصصين فى الفلسفة وهجرة الكثيرين منهم إلى جامعات العالم العربى ، ومع ذلك فإنى أقترح على مجمعنا الموقر أن نواصل المسيرة فنعمل على إعداد معاجم أخرى فى شتى فروع الفلسفة ، ونبدأ بإصدار معجم فى مصطلحات [المنطق : الصـورى

منه والرمزى ، مع مناهج البحث العلمى وفلسفة العلوم . ثم نضع معجماً فى فلسفة الأخلاق وفلسفة الجمال ، وهكذا نستوفى الإبانة عن مصطلحات الفلسفة فى شتى فروعها :

أما بعـد ... فقد أخذت فى مجمعنا مكان عالم نحوى ضليع هو المغفور له الأستاذ عباس حسن. ومن أسف أنى لم أحظ بشرف معرفته فأتحدث إليه وآنس بعلمه ، ولكن شهرته مع آثاره العلمية قد تكفلت بإذاعة اسمه بين قراء العربية ، فقد أيده الله بفيض من التوفيق فى دراساته ، فأرسى قدميه فى فروع من المعرفة يتَهيَّبها جمهرة الدارسين العازفين عن دراسة النحو لصعوبتها ، أما فقيدنا فقد كان ولوعاً بالنحو متعمقاً فى دراساته ، نافراً من كل من ينحرف عن قواعده مع قدرة على الإقناع والإبانة فى غير تكلف ولا التواء ، ولم تتهيأ له مكانته فى النحو والأدب عفواً ، وإنما سعت إليه بعد جهود مضنية ، تشهد بها آثاره العلمية وبحوثه الشيقة ، وقد أفاد منها الباحثون ونهل من معينها طلابه أجيالا طوالا ، وكثيرون منهم يشغلون اليوم مناصب علمية رفيعة ، وحسبه فى هذا كتابه « النحو الوافى » - مع ربطه بالأساليب الرفيعة والحياة اللغوية المتجددة » بأجزائه الأربعة ، ثم نقده للشعر فى كتابه الذى وازن فيه بين المتنبى وشوقى فى إمارة الشعر ، وهو فى هذين الكتابين قد زاد العربية فى نحوها وآدابها خصوبة وثراء . ويقول رحمه الله فى مقدمة كتابه « اللغة والنحو بين القديم والحديث » :

« ... وصلت الأيام بينى وبين اللغة العربية بأوثق الصلات ، وجرى القدر أن أكون من العاكفين عليها تعلماً وتعليماً ، وأن أقضى السنين الطوال فى دراسة علومها ، وقراءة ما جادت به قرائح الأفذاذ من أبنائها والأعلام المشتغلين بها ، فوجدتنى أمام مورد لا ينضب ، بل بحر فسيح الجنبات بعيد الأعماق » .

كان رحمه الله غزيراً فى علمه ، مخلصاً فى تأدية واجبه ، بشهادة العالمين المجمعيين الجليلين : الأستاذ الدكتور إبراهيم مدكور ، والسيد الأستاذ على النجدى ناصف . يقول الدكتور مدكور فى رثاء الفقيد : « حرمنا من صوت جهير ، قلّ أن تمر جلسة دون أن نسمعه ، ولقد كان رحمه الله وفياً كل الوفاء لمجمعه ، لم يتخلف عن جلسة من جلساته ، ولا عن لجنة هو عضو فيها ، إلا لضرورة قاهرة ... يحقق موضوعات أثيرت ، ويمحص أفكاراً عرضت ، ولا يتردد فى أن يستأنف الحديث فيما أثير من قبل ، ولا أن يطلب إعادة النظر فيما سبق أن بُتّ فيه . . . يُعنَى بالمبدأ والقاعدة ، ولا يبيح الخروج عليهما ، ولا غرابة ، فقد كان نحوياً ، ونحوياً إماماً مستظهراً للقواعد النحوية استظهاراً تاماً ، وربما طغى نحوه على ثقافته كلها . . . » .

ويقول الأستاذ على النجدى : « ... ما من مصطلح يعرض فى المجلس إلا تلقّاه بالنقد والتمحيص ، لفظاً وأسلوباً ، فإن كان صالحاً

سكت عنه ولم يعترض سبيله ، وإن بدا له فيه مأخذ أمسك به وجهر برأيه فيه ، فإما موافقة عليه وإقرار له كما يراه ، وإما حوار ومحاجة تطول أو تقصر حتى ينجلى الرأى لا حجاب دونه ولا خلاف عليه ولا وجه لتمادى الحوار فيه .. وما أعرف من السادة المجمعيين الذين شرفت بزمالتهم من كان أكثر منه حديثاً فى المجلس ، ولا أكثر منه ذكراً فى محاضر جلساته » .

إننا جميعاً نقدر مدى الخسارة الفادحة التى لحقت بنا بفقدان هذا العالم الجليل ، والذين يعرفون له فضله وعلمه ، يتوجهون بالدعوة إلى الله أن يعوضنا عن فقده خيراً . رحمه الله رحمة واسعة وجعل الجنة مثواه لقاء ما قدم لتلاميذه وقرائه من علم نافع .

أما بعد : فإنى أعود فأكرر لكم جميعاً شكرى على الثقة الغالية التى تفضلتم فحبوتمونى بها ، وعلى فضل الاستماع إلىَّ ، وشرف الانتساب إلى مجمعنا الموقر ، جزاكم الله خيراً ، ووفقنى إلى الإسهام معكم فى تحقيق رسالتكم النبيلة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

محمد توفيق الطويل

عضو المجمع

كلمة الختام

للدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع

نكرر ترحيبنا بالزميل الجديد وتهنئتنا له، ونرحب بمقترحاته ونأمل أن تخرج إلى النور معاجم متخصصة فى المنطق والأخلاق وعلم الجمال، وهذا أمر طبيعى فهو وأدبه، عليهما نعول.

ونشكر كل الذين ساهموا معنا فى إحياء هذا الحفل، وشكراً لكم جميعاً، ورفعت الجلسة.

في الساعة الحادية عشرة من صباح الأربعاء ٢٠ من جمادى الآخرة سنة ١٤٠٢ هـ (الموافق ١٤ من ابريل سنة ١٩٨٢ م) أقام المجمع حفل تأبين فقيده المرحوم الأستاذ على النجدى ناصف ، وفيما يلى الكلمات التى القيت فى هذا الحفل :

كلمة الافتتاح للدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع

فى تأبين المرحوم الأستاذ

على النجدى ناصف

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها السادة :

رحم الله الأستاذ زكى المهندس ، فهو أول من وجه نظرنا نحو عالم جليل وأستاذ كبير هو فقيد اليوم المرحوم الأستاذ على النجدى ناصف ، وجه نظرنا إليه منذ خمس عشرة سنة أو يزيد ، ولم يكن حظنا سعيداً لننعم بصحبته وزمالته منذ اللحظة الأولى التى ذكر اسمه فيها بيننا ، ولكننا نعمنا به منذ ديسمبر عام ١٩٧٣ ، تسع سنوات أو تزيد قليلا قضاها معنا المرحوم على النجدى ، قضاها فى عطاء مستمر ، عطاء فى اللجان المختلفة ، عطاء فى مجلسنا ، عطاء فى مؤتمرنا ، عطاء كله ذهن صاف ، وأسلوب رقيق ، لا يتكلم لمجرد الكلام ولكنه صامت إلا إن وجد ما يقوله من كلام ، ولن أستطيع فى فتح هذا الحديث وبدايته أن أوفى الأستاذ على النجدى حقه ، وكل ما أرجو أن يجزيه الله عنا وعن أمته خير الجزاء .

وزميلنا الأستاذ الدكتور شوقى ضيف سيقول كلمة المجمع عن الفقيد ، ثم بعد ذلك كلمة الأسرة ، ويلقيها الدكتور جلال النجدى نجل الفقيد .

كلمة المجمع للدكتور شوقى ضيف

السيد الرئيس ، الزملاء الأجلاء ، السيدات والسادة :

مهما أملّنا أن يمتد العمر بمن نحبهم ونردهم ونقدرهم ونعرف فضلهم فإننا نفتقدهم واحداً بعد واحد ، إذ لكل عمر مقدور وميقات معلوم وأجل محتوم : « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » ، ولسنا نملك إزاءهم إلا التسليم لقضاء الله الذى لا رادّ لقضائه ولا معقّب لحكمه .

ولقد خلّف اختيار الموت للأستاذ على النجدى ناصف من بيننا فى نفوس زملائه غير قليل من الأسى واللّوعة ، وضاعفهما أنه حين نزل به القضاء وعلم الزملاء بالنبأ الحزن أسرعوا يحاولون تشييع جثمانه إلى مقره الأخير ، غير أنه لم يكتب لأحد منا أن يكون بين مشيعيه ، حتى ينظر كيف يوارى التراب هذا الجسد الطاهر ، بل هذا العلم الشامخ من أعلام العربية ، وكأنما شاء قاصداً أن يرحل فى هدوء دون أن يتكلف أحد من زملائه أى مشقة يوم وداعه وأفول نجمه .

وأقولها محزونا : لقد أخلى الأستاذ على النجدى ناصف فى المجمع مكاناً لا يسد أبداً ، لخلقه الرفيع النبيل وعلمه اللغوى الغزير وأى زميل له منا لا يخالجه الحزن العميق حين يذكر ما فقدناه فيه من طمأنينة النفس وصفاء الروح وطلاقة الوجه وعفة اللسان ؟ وبالمثل مافقدناه فيه من قهر المشاكل اللغوية العويصة وما كان يقدم لها من حلول سديدة فى صوت هادئ متزن لين خفيض ، وكأنما يتكلم همساً ، وهو همس كان يحمل دائماً التصويبات اللغوية الصائبة فى غير جلبة ولا ضوضاء شأن العلماء الوقورين الأجلاء . وفى اللجان ، وخاصة لجنة الألفاظ والأساليب ، كان ما يفتأ يضيء جوانب المبهمات العسرة ، وما يفتأ يصحح ويصوّب ويصلح الخلل ويداوى السقم ، وما يفتأ يسوّغ - ببراهين لغوية لا تُدحض - ما يُظَنّ ببعض الألفاظ ، والعبارات المتداولة من الانحراف عن الصراط اللغوى السّوىّ .

ومنذ دخل الأستاذ على النجدى ناصف المجمع عضوا عاملا فيه كان يقدم فى كل مؤتمر من مؤتمراته طرفة بارعة من طرف بحوثه الرائعة ولم يكن يروع زملاءه فى بحوثه بتحقيقاته وما يثير فيها من أدق الدقائق اللغوية فحسب ، بل كان يروعهم أيضا بأسلوب ناصع مصفى ، وكأنما نثرت ألفاظ اللغة تحت بصره ليختار لنفسه ولبحوثه منها أسلوبا متسقا غاية الاتساق ، لا نُبُوّ فى لفظة من ألفاظه ولا التواء ، بل دائما جمال فى الجرس والأداء ، فكل لفظة قد انتخبها بدقة ليَحْسُن وقعها فى السمع مع شقيقاتها فى العبارة ، وبالمثل كل عبارة انتخبها بميزان

لتلتئم أدق التئام مع جاراتها فى نسق صوتى بديع ، والموضوع دائما النحو واللغة الشائكان ، وكان يعرف كيف يُخلى بحوثه فيهما من كل شوك ، حتى يسيغها المستمع والقارئ فى يسر . ولعلى لا أغلو إذا قلت إنه كان يحيل بحوثه فيهما إلى ما يشبه سلسالا عذبا ورياضا نضرة .

وإنها لفجيعة كبرى للمجمع إذ فجع فى الأستاذ على النجدى ناصف أديبا لا يجارى وعالما لغويا لا يبارى فى تعمقه للغة والنحو وسبره لأغوارهما فقها وتحليلا . وإنه لمما يعزّى المجمع عن خسارته الكبيرة له أنه أدى للعربية خدمات جُلّى تجعله ينتقل من دارنا الفانية إلى الدار الباقية راضيا مرضيا وإن سيرته العلمية وما بذل فيها من جهد شاق متصل لخليقة أن تُرْفَع نبراسا مضيئا نصب أعين شبابنا من العلماء كى تحفزهم إلى المزيد من العمل العلمى الجاد الخصب المثمر .

وقد ولد الفقيد بأخرة من القرن الماضى فى قرية الصنافين القبلية بمركز منيا القمح فى محافظة الشرقية ، لأب كان شيخا مزارعا ، ألحق ابنه بالكتاب كعادة أبناء الريف ، فحفظ القرآن الكريم فى سن مبكرة ، ورأى الأب فى ابنه مخايل نجابة ، فأرسل به إلى الأزهر الشريف ليتم تعليمه ، وانتظم بين طلابه ، وأخذ ينهل من منابع العرفان فيه وينتقل متفوقا من سنة إلى أخرى ، وبدا له أن يدخل مدرسة دار العلوم ليتزود فيها زادا وافرا من اللغة والنحو والأدب ودخلها ، وأمضى سنواتها عاكفا على هذا الزاد حتى استوعبه وتمثله ، وتخرج فيها لسنة ١٩٢١ واشتغل بالتدريس فى المدارس الحكومية ومدارس المعلمين الأولية التى كانت تخرّج المعلمين للأجيال الناشئة فى القطر ، وكان القائمون على هذا التعليم يختارون له الصفوة من مدرسى العربية وتصادف أن عُيّن فى مدرسة دسوق للمعلمين ، وكان المرحوم الأستاذ الجليل عبد الحميد حسن أمين المجمع السابق مفتشا بوزارة المعارف حينئذ وزار المدرسة واستمع إليه فى بعض دروسه وحظى بإعجابه . وذكر ذلك فى استقباله عضوا عاملا بالمجمع ، إذ يقول : « فى مدرسة دسوق للمعلمين حظيت بزيارة الأستاذ على النجدى ، وكان يلقى درسا يعد من أدق الدروس وأدلها على مقدرة المعلم ومهارته فى مادته وطريقته وهو درس التعبير أو الإنشاء الشفهى ، وكان موضوع الدرس من مشاهدات البيئة المحلية وهو «دسوق فى يوم السوق» وكان فى أدائه وإلقائه وحواره نموذجا للمعلم القدير والمربى الماهر الذى يتخذ من درسه وما يعالج من حقائق وسيلة لبناء العقول وإنشاء الأنفس وكان بذلك محققا لقول شاعرنا شوقى :

أرأيت أعظم أو أجلّ من الذى
يبنى وينشىء أنفساً وعقولا

رأيت كل هذا من الزميل الكريم ، فامتلأ قلبى وسمعى وبصرى إجلالاً له وتقديراً» .

وانتقل الأستاذ على النجدى ناصف بعد ذلك إلى التفتيش ، وظل فى أثناء عمله به يتابع نشر البحوث اللغوية والأدبية فى صحيفة دار العلوم منذ ظهرت فى الثلاثينيات من القرن الحاضر إلى أن توقفت عن الصدور فى أخريات الحرب العالمية الثانية . ولفتت هذه البحوث الأساتذة بدار العلوم ، فانتخبه مجلسها مدرسا بها سنة ١٩٤٣ وتألق نجمه فيها بين زملائه ، وتدرج فى وظائف الدار العلمية حتى أصبح أستاذا ، وأحيل إلى التقاعد فتحول بها أستاذا غير متفرغ حتى لبّى نداء ربه ، وبذلك ظل بالدار نحو أربعين عاما يعلم ويحاضر ويربى الآلاف ويشرف على كثير من رسائل الماجستير والدكتوراه . وفى أثناء ذلك اختير عضوا فى لجنة إحياء التراث بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وحظى المجمع بانتخابه عضوا عاملا فيه سنة ١٩٧٣ ، فنهض بمهمته على خير وجه مشاركا بالبحث اللغوى القويم والرأى الصائب السليم والألمعية النادرة

وكان غزير التأليف ، كما كان غزير التحقيق لكنوز التراث ، غير ما نشره من المقالات والبحوث فى المجلات الأدبية والعلمية وفيما يلى بيان مجمل عن مؤلفاته .

وأولها كتاب سيبويه إمام النحاة افتتحه بمقدمة عرض فيها للنحو فى مؤلفاته المعاصرة ودعا تأليف لجنة تعيد النظر فيه وتخلصه من شوائبه ، وترجم لسيبويه موضحا ما يتميز به من خصائص شخصية ونفسية وعقلية ودرس بعد ذلك الكتاب دراسة تحليلية دقيقة، بيّن منهجه ولغته وما أودع فيه من أصول النحو وشواهده ، وتحدث عن قيمته ومدى تأثيره فى النحو والنحاة من بعده . وألحق الدراسة بفهارس مفصلة لشواهد الكتاب من القرآن الكريم والحديث النبوى ومن الشعر والرجز .

وثانى المؤلفات « الدين والأخلاق فى شعر شوقى » والكتاب مقـدمة ودراسة ، والمقدمة تصور سلطان النزعة المادية وانحرافها بالقيم الفاضلة عن أغراضها النبيلة مع بيان إخفاق الحضارة المادية فى إسعاد البشرية ومع الدعوة إلى حضارة روحية تستلهم الدين وتعاليمه ، ومع بيان التأثر العميق القوى بالدين . وتعنى الدراسة بعد ذلك بالموازنة بين بردة البوصيرى ونهج البردة لشوقى ، وأيضا بالموازنة بين همزية البوصيرى وهمزية شوقى فى المديح النبوى . وتحلل الدراسة بقية شعر شوقى فى الدين والأخلاق تحليلا دقيقا مع الإنصاف والعرض الطريف .

وثالث المؤلفات « دراسة فى حماسة أبى تمام » وقد استهلت الدراسة بمقدمة أرّخت لفن الاختيار فى الشعر ، وتوسعت فى الحديث عن حماسة أبى تمام وآثارها فى الدراسات اللغوية . وأخذ الأستاذ النجدى يعرض بعد ذلك منتخبات متنوعة لشعر حماسة أبى تمام دارسا ناقدا محللا ، مع الوصل بين كثير من معانى الشعراء وخوالجهم وبين واقع الحياة .

ورابع المؤلفات « القصة فى الشعر العربى إلى أوائل القرن الثانى الهجرى » وقد بدأه الأستاذ النجدى بمقدمة عن نشأة القصة وتطورها ومكانتها من فنون القول مع نقد القصة المعاصرة فى لغتها وموضوعاتها وبيان أنها فى جملتها لا تصور الشخصية العربية ولا القيم الخلقية الرفيعة . وعرض بعد ذلك أنواعا تسعة للقصة حتى أوائل القرن الثانى الهجرى وفى كل نوع قدم نماذج قصصية شعرية درسها دراسة تحليلية مفصلة

وخامس المؤلفات « من قضايا اللغة والنحو » وهـو عرض لقضايا طالما أثيرت فى اللغة والنحو ، كقضية الفصحى والعامية ، وقضية الشعر الحر المعاصر ومكانه من الشعر العربى ، وقضية التأويل والتقدير فى النحو ، وقضية الإعراب والمعنى .

وسادس المؤلفات « أبو الأسود الدؤلى » وقد درس فيه الأستاذ النجدى عصر أبى الأسود وحياته ، وتحدث عن ضبطه لآى القرآن الكريم وما قيل عن وضعه للنحو قديما وحديثا ، وانتهى إلى أن النحو عربى عروبة خالصة فى نشأته لم يؤخذ عن السريانية ولا غيرها من اللغات . وختم الكتاب بفصل عن شعر أبى الأسود وخصائصه . والمؤلف السابع « ابن قيس الرقيات شاعر السياسة والغزل » وهو دراسة نقدية تحليلية لحياة ابن قيس وشعره وآرائه وخاصة ما اتصل منها بالسياسة .

والمؤلف الثامن « تاريخ النحو » وهو كتيب فى سلسلة كتابك التى تصدرها دار المعارف ، وهو إلمام سريع بالنحو فى نشأته وتطوره وحياته فى الأقطار العربية ، مع تراجم موجزة لأشهر النحاه .

وبجانب هذا النشاط الجم فى التأليف كان للأستاذ النجدى نشاط خصب فى تحقيق طائفة من نفائس التراث الدينى والأدبى ، منها ما انفرد بتحقيقه ، ومنها ما شارك فيه ، أما ما انفرد فيه فتحقيق الجزء المتمم للعشرين من كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى بتكليف من هيئة الكتاب وكان قد سبق نشره ، فأتاح له نشرة علمية محققة أدق ما يكون التحقيق .

وحقق أيضا منفردا مجلدين من كتاب الاسـتذكار فى فقه السنة المقـارن للحافظ ابن عبد البر القرطبى الأندلسى بتكليف من المجلس الأعلى للشئون الإسلامية وهو كتاب ضخم متعدد الأجزاء ، عماده كتاب الموطأ لمالك وما فيه من الأحاديث النبوية والآثار . وابن عبد البر يدير مباحثه فى الكتاب على تلك الآثار والأحاديث عارضا مختلف المذاهب الفقهية ومقارنا بينها مقارنات وافية . وقد نهض الأستاذ النجدى بإحياء المجلدين اللغويين اللذين حققهما من الكتاب على خير وجه وهما يصوران جهدا علميا شاقا جديرا بكل تقدير .

واشترك الأستاذ النجدى فى تحقيق كنزين رائعين نفيسين من كنوز القراءات

للذكر الحكيم هما : كتاب المحتسب فى تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها لابن جنى ، وكان قد بناه على كتاب شواذ القراءات لابن مجاهد أكبر شيوخ القراء فى زمنه . والكتاب الثانى الذى شارك فيه الأستاذ النجدى كتاب الحجة فى علل القراءات السبع لأبى على الفارسى وكان قد بناه بدوره على كتاب القراءات السبع لابن مجاهد الذى كان لى شرف تحقيقه ونشره ، وقد نُشر من كتاب الحجة مجلد واحد ، وكنا نأمل أن يتمهل القضاء بالأستاذ النجدى حتى يتم نشره .

وللأستاذ النجدى وراء تحقيقاته ومؤلفاته العلمية بحوث كثيرة فى الأدب واللغة والنقد كان ينشرها فى صحيفة دار العلوم والمجلات الأدبية كما أسلفنا وكذلك فى مجلة المجمع وأذكر من مقالاته فى المجلة الأخيرة مقالة، كتبها فى عدد نوفمبر سنة ١٩٦٩ عن كتابى « المدارس النحوية » ولم تكن قد انعقدت بيننا صحبة حتى هذا التاريخ . وفيها أسبغ علىّ ثناء هو نفسه أهله ومستحقه الجدير به.

ولم أتحدث حتى الآن عن عمله العلمى بالمجمع وما أفاده من مذخور علمه وفكره ، وعمله به صفحة ناصعة تضاف إلى صفحات عمره العلمية المجيدة ، وله فيه جهود خصبة بلجان المعجم الكبير والمعجم الوجيز والأدب والتاريخ وإحياء التراث والألفاظ والأساليب . وكان فى كل مؤتمر سنوى للمجمع منذ انتخابه عضوا عاملا فيه يقدم فى مؤتمراته بحثا نحويا أو لغوياطريفا ، وأكثر بحوثه كانت تتصل بالقرآن الكريم وآخرها بحثه الذى تلى فى المؤتمر الأخير بعنوان « بين القرآن والنحو »وقد ناقش فيه دعوة قيلت تعليقا على محاضرتى العامة بمؤتمر المجمع فى العام الماضى عن تيسير النحو مؤداها أن يُعْتَمدَ فى التيسير المنشود على نحو يستمد من القرآن الكريم ، ومعروف أن أى دعوة إلى عمل يقوم على أساس من الذكر الحكيم تقابل بالترحيب تيمنا بالقرآن وارتفاعا إلى أفقه الأعلى .

وظل الأستاذ الجليل يدير هذه الدعوة فى نفسه حتى كتب بحثه الذى استمعتم إليه فى المؤتمر ، ملاحظا أن ضروبا من أساليب العربية لا يوجد لها نظائر فى القرآن ، والنحو إنما وضع لجميع أساليب العربيــة ، ويضيف أن لكتاب الله قراءات كثيرة يتنوع الخلاف بينها فى حركات الإعراب وفى بنية الكلمة ، بل إن قراءة واحدة من القراءات سبعية وغير سبعية قد يخالف صاحبها فيها نفسه ، فيقرأ الحركة الإعرابية للكلمة فى موضع أو مواضع بقراءة ، ثم يغير حركتها فى موضع أو مواضع أخرى ، ويضرب لذلك مثلا الآية الكريمة :(كن فيكون) فقد تكررت تلك الآية فى القرآن إحدى عشرة مرة ، وقرأها ابن عامر أحد القراء السبعة (فيكونَ)

بالنصب ست مرات ، وقرأها (فيكونُ) بالرفع خمس مرات ، وخلص الأستاذ النجدى من ذلك كله إلى قوله : « إننا حين تمنينا على الله أن يجعل لنا من القرآن نحوا لم نطلب الأمر من مأتاه الأصيل لأن القرآن ليس كتاب لغة ولكنه دستور حياة و نبراس هداية.

والأستاذ على النجدى ناصف كان يعلم حق العلم – حين قال ذلك – أن النحاة منذ سيبويه يستشهدون بآيات القرآن الكريم فى النحو ، وأن الآية منه وبعض الآية حين يستشهدون بها لقواعدهم بين ما يستشهدون به من الشعر والنثر تكون كالشهاب الثاقب والضوء الساطع . غير أن التفكير فى شواهد القواعد النحوية ومدى الاستعانة فيها بآيات القرآن الكريم المضيئة شئ ، وتيسير النحو المأمول بتذليل صعابه وتنسيق أبوابه وحذف زوائده وتبسيط قواعده للناشئة شئ آخر وعن ذلك صدر الأستاذ على النجدى ناصف فى بحثه : «بين القرآن والنحو» .

وأعترف بأنى لم أكن لأستطيع تبيان هذا الموضوع على نحو ما بيّنه فى البحث بيانا علميا وافيا .

وإذا رجعتم – حضراتكم – إلى ما قدمته لجنة الألفاظ والأساليب فى المؤتمرات طوال السنوات التسع الأخيرة فإنكم ستجدون له عشرات الفتاوى اللغوية التى سوّغ بها كلمات متداولة كان يُظَنّ أنها نابية فإذا هى بفتاويه العلمية السديدة تدخل إلى دوائرها وعملتها الفصيحة .

السيدات والسادة

لعل فيما قدمت ما يصور – من بعض الوجوه – خسارة المجمع للعالم الجليل الأستاذ على النجدى ناصف وبحوثه وفتاويه اللغوية والنحوية المحكمة ، وإنها لخسارة فادحة لا تعوَّض . وسلام الله عليه يوم فقدناه ، وسلام الله عليه يوم نلقاه، طيَّب الله ثراه ، وجعل جنات الفردوس نُزُله ومثواه .

شوقى ضيف
عضو المجمع

كلمة الأسرة لنجل الفقيد الدكتور جلال النجدى

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد الأستاذ الدكتور رئيس المجمع ،

السادة الأساتذة الأجلاء أعضاء المجمع ،

سيداتى سادتى ،

باسم أسرة المغفور له الأستاذ على النجدى ناصف ، أتقدم بخالص الشكر والامتنان إلى مجمع اللغة العربية ، رئيساً وأعضاء ، على الموقف النبيل الذى بدا منهم جميعاً ، مشاركة فى العزاء ونعياً بالصحف ، ثم ختاماً بحفل التأبين هذا .

وقد استن المجمع الموقر أن يكرم أعضاءه الذين مضوا إلى رحاب الخالدين ، وهو بذلك يضرب أروع الأمثال فى الوفاء ، ولا غرو فى ذلك فأنتم القدوة .

وليس لدى ما أقوله بعد الكلمة الكريمة لأستاذنا الدكتور إبراهيم مدكور رئيس المجمع والكلمة الجامعة الوافية التى ألقاها أستاذنا الدكتور شوقى ضيف عضو المجمع ، والذى كان أحد أصفياء الفقيد ، ولا أستطيع التعبير عن مدى شكرى وشكر الأسرة لكم جميعاً .

لقد أمضى الفقيد حياته فى خدمة اللغة العربية وآدابها فى كلية دار العلوم وفى مجمع اللغة العربية ، فلم ينقطع يوما عن القراءة والبحث والعطاء ، وكنت أشفق عليه من الإرهاق الذى كان يصر عليه حتى وهو مريض ، فكانت آخر محاضرة ألقاها على أبنائه طلبة الدراسات العليا بكلية دار العلوم قبل وفاته بأيام ، وكان آخر أبحاثه ذلك الذى قدمه لمؤتمر المجمع ولم يمهله الأجل لإلقائه بنفسه .

لقد مضى هادئاً إلى الرفيق الأعلى كما كان هادئاً فى حياته ، وإذا كانت وفاته خسارة فادحة للمجمع ولتلاميذه ، فقد كان رحيله المفاجىء صدمة عنيفة لأسرته ، حيث كان نعم الأب المشغول دائماً بمشاكل أبنائه ، المشير دائماً بالنصيحة .

ولا يفوتنى فى هذا المقام أن أُنوِّه بالمغفور له الأستاذ محمد زكى عبد القادر عضو المجمع ، فقدرثا الفقيد فى مقاله اليومى « نحو النور » بجريدة الأخبار

وشاءت إرادة العلى القدير أن ينتقل إلى رحابه بعد ذلك بأيام ، فقد المجمع علمين من أعلامه فى أسبوع ، رحمهما الله وأسكنهما فسيح جناته .

وفى الختام أكرر الشكر – باسم الأسرة – لأسرة المجمع وللجميع من شاركوا فى هذا الاجتماع الجليل بالإعداد أو الحضور .

والسلام عليكم ورحمة الله

كلمة الختام للدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع

أيها السادة .

شكراً لكم جميعاً ، وعوضنا الله فى فقيدنا وفقيد الأمة خيراً ، وجزاه عما قدم لأمته ولغته خير الجزاء .

فى الســـاعة الحادية عشرة من صـــباح الأربعـــاء ٢٧ من جمادى الآخـــرة ســـنة ١٤٠٢ هـ (المـــوافق ٢١ من أبريل سنة ١٩٨٢ م) أقام المجمع حفل تأبين فقيده المرحوم الأستاذ محمد زكى عبد القادر ، وفيما يلى الكلمات التى ألقيت فى هـــذا الحفـــل :

كلمة الافتتاح للدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع

فى تأبين المرحوم الأستاذ

محمد زكى عبد القادر

بسم الله الرحمن الرحيم

سيداتى وسادتى :

ترجع صلتى بفقيدنا الكريم إلى عهد بعيد ، فقد عرفته منذ ثلث قرن أو يزيد ، جمعتنا شئوننا العامة ، وحياتنا السياسية التى كنا نحس حينذاك شيئا من التدهور ، نأمل أن نفيق إليه وأن نوجه الأنظار نحوه ، وأن نتدارك ما يمكن تداركه من نقص ، والتقينا تحت راية جماعة صغيرة كانت تسمى جماعة نهضة مصر ، وقد أخذت هذه الجماعة نفسها بمعالجة مشاكلنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية معالجة علمية وموضوعية وتقوم على الدرس والبحث ، وتحاول أن تقدم للوطن المستنير صورة واضحة عن تلك الحياة فى جوانبها المختلفة ، وأشهد أن المرحوم محمد زكى عبد القادر قد مكن هذه الجماعة مما تيسر لديه حين ذاك من وثائق ، وأهمها مكتبه الذى وضعه تحت تصرفها ، فكانت تلتقى فيه وتتبادل الحديث فى مختلف شئونها ، وعاوننا أيضا بقلمه ، أيد غرضها ودافع عن أهدافها وفى الواقع كان زكى عبد القادر بعامة معنيا بحياتنا فى مختلف جوانبها ، معنيا بها عناية تنبعث من قلبه ويحس بها الإحساس كله ، ومن هنا حاول أن يرشد وأن ينصح وأن يوجه ، مجتمعة - كما يقول هو - نحو النور ، وكم كنا فى حاجة - ولا نزال - إلى نور ، واستطاع زكى عبد القادر طوال ثلاثين سنة أو يزيد أن يبدى رأيه فيما يعن له ، يبديه فى غير مجاملة ولا تزلف ، فلا يمارى ولا يداهن ، ولا يخادع ولا يتمنع ، ولا يتبدل ولا يتغير وكان أمة وحده فى إبداء مايراه من نصح وإرشاد على نحو ما تصوره وآمن به ، وقد مكنه قلمه من أن يعبر عما يجول بخاطره فى غير مهاترة أو تحامل خاص ،

وإنما تعبير صادق عن إحساس صادق ينشد الحياة وينشد النهوض والتقدم لأمته التى أحبها وبذل حياته فى سبيلها جزاه الله خير الجزاء عما قدمه لسانه وقلمه فى سبيل أمته ووطنه .

وسيقول كلمة المجمع فيه الزميل الكريم الأستاذ محمد عبد الغنى حسن ، الذى سبق له أن استقبله منذ عامين تقريبا ، وأبى عليه وفاؤه إلا أن يودعه ، وسيقول كلمة الأسرة بعده نجل الفقيد الأستاذ سمير عبد القادر .

كلمة الأستاذ محمد عبد الغنى حسن

رحم الله أبا نواس فى هزله ومجونه ، ورحم الله أبا نواس فى جده ونطقه بالحكمة حيث قال :

وما المرء إلا هالك وابن هالك
وذو نسب فى الهالكين عريق

فقل لقريب الدار : إنك راحل
إلى منزل نائى المحل سحيق

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت
له عن عدو فى ثياب صديق

سيدى الرئيس : زملائى الكرام ، سادتى .

بالأمس القريب جدا ، ومنذ عامين لاغير ، قدر لى أن أستقبل هنا الزميل العزيز الراحل « محمد زكى عبد القادر » عضوا نازلا ، واليوم وفى المكان نفسه وفوق هذا المنبر بعينه شاء الله أن أودعه فقيدا راحلا ، فكأننى مابين استقباله بالأمس وتوديعه اليوم أردد قول شيخنا وإمامنا « شوقى » أمير الشعراء رحمه الله :

أإلى الحياة سكنت وهى تصارع
وإلى الأمانى يسكن المسلول

لاتحفلن ببؤسها ، ونعيمها
نعمى الحياة وبؤسها تضليل

مابين نضرتها وبين ذبولها
عمر الورود ، وإنه لقليل

هذا بشير الأمس أصبح ناعيا
كالحلم جاء بضده التأويل .

نعم بهذه السرعة سبقنا زكى عبد القادر إلى رحاب الله . وقد كان دائما سباقا فى مسيرته على درب الحياة وإن كان وئيد الخطى منذعرفته منذ أكثر من نصف قرن . فقد سبق إلى نيل « البكالوريا » وسنه ثمانية عشر عاما ، وسبق إلى نيل شهادة الحقوق وسنه اثنان وعشرون عاما . وسبق إلى الظفر بالجائزة الأولى فى مسابقة نظمتها وزارة على ماهر باشا سنة ١٩٣٦ ، ثم سبق إلى رياسة تحرير « الأهرام » بعد أنطون الجميل العضو السابق بمجمعنا ، وهو كرسى لم يشغله مصرى واحد قبل زكى عبد القادر ، وإنما كان وقفا على إخواننا اللبنانيين . . . ثم جاء أخيرا وسبقنا إلى قضاء الله فى سرعة خاطفة ، فلم يقم بيننا فى المجمع غير عامين ينقصان شهرا . . . فكان بذلك من الأعضاء الملمين بالمجمع إلماما قصيرا ، مثل المرحوم عبد القادر حمزه باشا الذى لم يقم بالمجمع غير بضعة أشهر ، والمرحوم الصديق « إسماعيل مظهر » صاحب العصور الذى أقام بالمجمع أقل من عام . ومن غرائب الاتفاق أن ثلاثتهم من المجمعين الصحافيين .

و « محمد زكى عبد القادر » يذكرنى فى أناته وفى رفق خطراته واتئاده فى مشيته منذ

عهد الشباب — وهو عهد القوة والفتوة — باثنين من كبار أدبائنا وعلمائنا ، عرفتهما عن قرب واتصلت بهما اتصال جار مجاور أو تلميذ مصادق . أولهما الأديب الكبير محمد السباعى مترجم «الأبطال» لكارليل «وقصة المدينتين لديكنز» و«التربية» لهربرت سبنسر ، «والرباعيات» لعمر الخيام وغيرها . ووالد صديقنا القصاص الشهيد الوزير «يوسف السباعى» ، فى مشيته المتأنية جدا ، التى كادت تكون ثباتا لاتحركا . . وفى وقفته الطويلة الفاحصة فى ميدان السيدة زينب رضى الله عنها ، يرصد الرائح والغادى . أو ينظر إلى السماء ويطيل النظر فيها ، كأنه يستلهم معانى فكر جديد . . أو كأنه عناه الشاعر خليل مطران بقوله فى نظرات «نابليون بونابرت» .

قالوا لنابليون ذات عشية
إذ كان يرقب فى السماء الأنجما
من بعد فتح الأرض ماذا تبتغى
فأجاب : أنظر كيف تفتتح السما

وثانيهما الشيخ الفيلسوف الأديب مصطفى عبد الرازق ، العضو السابق بمجمعنا ، الذى كان يدخل جلسات مجلس الأزهر ، أو مجلس الجامعة وكلية الآداب متأخرا عن الموعد ، كما جاء زكى عبد القادر إلى الحفل الكبير الحاشد الذى أقيم فى القاعة الشرقية بالجامعة الأمريكية سنة ١٩٥٥ ، تكريما للشاعر المهجرى الصديق المرحوم جورج صيدح ، ولإبداء الرأى فى الشعر المهجرى جملة ، فجاء إلينا على منصة الخطباء متثاقل الخطوات يجر قدميه جرا ، متأخرا جدا عن بدء الحفل ، مع أن المفروض أنه كان طرفا — بل حكما — فى قضية الشعر المهجرى بين شاعرنا المجمعى العظيم : عزيز أباظة باشا ، وبين جورج صيدح ، وبينى . . . وأحس زكى عبد القادر بحرج موقفه أمام الندى كله . . . وعبر عن ذلك بقوله فى يومياته فى اليوم التالى بصحيفة الأخبار : (وحينما وصلت إلى القاعة الشرقية كان الحفل قد بدأ منذ أكثر من ساعة ، والحضور فى صمت يستمعون إلى حديث الأستاذ محمد عبد الغنى حسن عن شعراء المهجر . وإنى لأعرف ثقل القادم فى موعد متأخر وسوء ما يحدثه من صوت أو ضجة بقدومه ، فآثرت أن أدخل متلصصا . وأنتحى جانبا على مقربة من الباب ، حتى يتاح لى الانصراف فى هدوء . ولكن تدبيرى كان شيئا وتدبير القدر كان شيئا آخر ، فإن الأستاذ حسن العروسى لمحنى فى عين نافذة عهدتها منه ، وأخذنى من يدى ، وأجلسنى على المنصة . . .) أ هـ

والشيخ مصطفى عبد الرازق عضو سابق راحل بمجمعنا ، وزكى عبد القادر عضو جديد معجل بالرحيل . . فالموازنة بينهما فى الأناة واجبة . فقد كان عبد الرازق كما قال صديقه طه حسين : (لايكره شيئا كما كان يكره العجلة فى القول والعمل والمشى ايضا . . كان شديد الأيثار للأناة ، وكان ذلك ربما عرضه لدعابات الصديق والزملاء . فما أكثر ما كانت تعقد الاجتماعات . ويحضر أعضاء

هذه الاجتماعات فى الموعد المقدر ، لا يتأخرون عنه الا الدقيقة أو الدقائق القليلة ، ألا « مصطفى » فكان يأتى دائما متأخرا جدا ، وكان زملاؤه لايحبون أن يأخذوا فى العمل قبل حضوره ، فكانوا ينتظرون وينتظرون ، وربما اضطرهم ذلك إلى بعض الضيق ، ولكنه كان يطلع عليهم بابتسامته الحلوة ، فلا يكادون يرونه حتى يضحكوا له . ولا يأخذون فى عملهم إلا بعد دعابة لا تمل . .) أ هـ .

وأذكر من أناة أخى زكى عبد القادر أن مؤتمر المجمع اتعد سنة ١٩٨٠ على رحلة إلى القناطر الخيرية ، وحددنا موعدا للالتقاء وركوب متن النيل فى زورق نهرى ، ولكن (زكى) فاته الميعاد فى مرفأين أو مرساتين حددناهما له ، فما كان منه إلا أن استأجر سيارة « تاكسى » لتقله إلى القناطر ، فكان أسبقنا نزولا بها . وهنا تمثلت فى خاطرى قصة السلحفاة والأرنب بكل مافيها من مفارقات الحياة . . . . .

ومن ذكريات الأناة فى خطى (زكى عبد القادر) حتى فى أيام شبابه أنه سبقنى إلى العمل محررا فى جريدة السياسة بتشجيع وترحيب من الدكتور محمد حسين هيكل ، لأنه تخرج صغير السن فى مدرسة الحقوق ، وكنت لا أزال أطلب العلم فى تجهيزية دار العلوم ، وكنت فى طريقى إلى الدار « بشارع المبتديان ، أمر على دار السياسة بالشارع نفسه ، فأجد الصحفى الناشئ « زكى عبد القادر » يأخذ طريقه إلى القصر الذى كان يحتله حزب الأحرار الدستوريين وجريدته المشهورة ، رفيق الخطى ، متأنيا فى مشيته ، كأنه أسد (المتنبى) الذى وصفه بقوله :

يطأ الثرى مترفقا من تيهه
فكأنه آس يجس عليلا

ولعل هذه الأناة فى المشية وفى الكلمة هى التى ألهمت زكى عبد القادر الأناة فى التفكير والتروية فيه ، فلم يكن عجلا فى إبداء الرأى ، وإلقاء الحكم . ولكنه كان يقلب القضايا على كل وجوهها واحتمالاتها ، حتى يخلص له فى النهاية رأى يطمئن اليه ويرتاح له .

ولقد بدا ذلك فى خلال مزاملته إيانا فى لجنة ألفاظ الحضارة التى يرأسها زميلنا الأستاذ بدر الدين أبو غازى . وفى هذه اللجنة يبدو تيار الآخذين بالألفاظ الأجنبية عن طريق « التعريب » لا « الترجمة » . . . وهو تيار يفتح الباب على مصراعيه لغزو لغتنا الشريفة بسيل من الألفاظ الوافدة الغربية المغربة التى ليست من بنية لغتنا ولا من أرومتها . كما يبدو تيار آخر غالب هو الأخذ بالتعريب فى إقلال واعتدال . « وزكى » كان جارى المحاور فى هذه اللجنة فكنت أرد اندفاعه فى الأخذ بالتعريب . وما هى إلا لحظات من التفكير المتأنى ، ليعود لمعسكرنا ، فأرضيه بهذا البيت من الشعر

لعمرو بن امرئ القيس الخزرجي جد عبدالله ابن رواحة الصحابي الشاعر رضي الله عنه، وهو من شواهد كتب «البيان»:

نحن بما عندنا وأنت بما عنـ
دك راض، والرأى مختلف

وبمناسبة الشعر وتسكين خاطر محمد زكي عبد القادر به، أذكر أنه كان يحبه، ويحب الاستماع اليه والاستشهاد به في مقالاته، ويومياته، وخطراته. وكان يرى أن حكمة الشعراء وتجاربهم قد تركزت به، وتبلورت - أو تبلرت - فيه. ومما وعيته عنه - رحمه الله - من الاستشهاد الشعرى الجيد ما ذكره في أحد مؤلفاته الكثيرة منسوبا إلى شاعر مجهول:

البس لكل زمان بردة حضرت
حتى تحاك لك الأخرى من البرد

وأذكر له - عليه رحمة الله - أنه كان يطرب للأمثال الشعرية التي أرويها له - في معرض الأحاديث بيننا - تصويرا لمجتمعاتنا العربية المعاصرة. من مثل قول الشاعر القديم:

ليس الشفيع الذى يأتيك متزرا
مثل الشفيع الذى يأتيك عريانا

وقول الشاعر الآخر

تعدو الذئاب على من لا كلاب له
وتتقى صولة المستأسد الحامى

وقول الشاعر الآخر، وهو زفر بن الحارث على ماحققته:

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى
وتبقى حزازات النفوس كما هيا

وكان يستزيدني من هذه الأمثال كلما لاحت فرصة، أو سنحت نهزة، ويسارع إلى تقييدها في ورقة معه.

وتبدو آراء زكي عبد القادر الناضجة في تقديم الشعر وتقييمه - أو تقويمه - في كلمته الكريمة التي كتبها في يومياته سنة ١٩٥٥ عن كتابي: (الشعر العربي في المهجر) حيث قال متفضلا: (سهرت الليلة أقرأ كتاب الأستاذ محمد عبد الغني حسن عن الشعر العربي في المهجر . . . وإني أشعر بعرفان للأستاذ عبد الغني أن أتاح لي فرصة ممتعة قضيتها أقرأ شعراً عربيا رصينا حينا، وقويا في معناه حينا آخر. وهو على الحالين يجلو مظهرا من مظاهر الأدب العربي الذى يحيا على الغربة، ويحاول أن يحتفظ بسماته في أرض تبعد عنه في العقل والفكر ومناهج الحياة، أضعاف ماتبعد عنه في المكان . . وحسبه أنه بذل هذه المحاولة. وحسب المهاجرين أن حاولوا الاحتفاظ بمقوماتهم الأصلية جهد ما استطاعوا. وفي هذا وذاك شهادة للأدب العربي ولهم بالأصالة وعمق التأثر، وصدق الإحساس . . .) فكان - رحمه الله - بذلك مقدرا بارعا منصفا لشعر المهجر وشعرائه، وموفقا حكما بين الآراء المختلفة فيه.

وبهذه المناسبة . أستغفر الله ، وأستغفر الأخلاق ، وأستغفر أخي « زكي » اذا قلت إنه كان مشغولا بالفكر الأجنبي والفكر العربي الحديث ، عن الفكر العربي القديم والأدب العربي القديم . ففي تقديمه للكتاب الجميل العميق (الله في الإنسان) استشهد على وجود الله بأقوال ثلاثة من غير العرب : برنا رد شو ، حيث قال في بعض معارض رأيه : (إن أفضل مكان للبحث عن الله هو الحديقة . ففيها تستطيع أن تنقب عنه فتجده) والمهاتما غاندى حيث يقول : (لاأقول إن الله هو الحق ، ولكن أقول أن الحق هو الله) — والأمبراطور الرومانى الفيلسوف الفاضل: ماركوس أوريليوس حيث يقول: (بين كل مافى الكون ، وجه عبادتك إلى أعظمها . وماهو أعظم مافى الكون ؟ إنه هذا الكائن الذى يدبر ويحكم . وكما تعبد أعظم مافى الطبيعة ، تعبد أعظم مافى نفسك ، قبسا من الله) .

وما لزميلنا المرحوم زكى عبد القادر يذهب بعيدا إلى غير الفكر العربي وعنده القرآن الكريم ، والخطابة العربية ، والشعر العربي في جاهليته وإسلامه وبين قديمه وحديثه . . . ؟

فالله تعالى يقول فى محكم كتابه : (أو لم يروا إلى ماخلق الله من شئ يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل ، سجدا لله وهم داخرون) سورة النحل ، آية رقم ٤٨ .

وقس بن ساعدة الايادى ، خطيب الجاهلية المشهور ، يقول من خطبته المأثورة المشهورة (ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج) ويخلص من هذا وغيره — مما ذكره فى خطبته — إلى الدليل على وجود الله .

وأبو قيس بن أبي أنس الشاعر المخضرم يقول قبل أن يهديه الله للإسلام :

سبحوا الله شرق كل صباح
طلعت شمسه ، وكل زوال
عالم السر والبيان لدينا
ليس ماقال ربنا بمحال

وأبو نواس يقول فى وصف زهرة :

تأمل فى نبات الأرض وانظر
إلى آثار ماصنع المليك
عيون من لجين شاخصات
بأبصار هى الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات
بأن الله ليس له شريك

وأبو العتاهية ، يقول :

فيا عجبا ؟ كيف يعصى الإله
أم كيف يجحده الجاحد ؟

وللّه في كل تحريكــــة
وفي كل تسكينة شاهد . .
وفي كل شيء له آيــة
تدل على أنه الواحـــد . .

فلماذا الرجوع إلى برنارد شو البريطاني، وماركوس أوريليوس الروماني، وغاندي الهندي وعندنا في تراثنا الفكري، ومأثورنا الأدبي، وكتابنا العظيم غناء كبير، وحصاد ثمين ؟ ؟

وزكي عبد القادر كان كاتبا بارعا مترسل الأسلوب في انسياب وسهولة وسلامة بناء، ووضوح عرض، ورشاقة تعبير، وقد كان بلا مراء صاحب قلم منفرد متميز، ولم يكن رحمه الله من ذوي الأقلام العنيفة من أعضاء مجمعنا هذا، ولكنه كان رقيقا رفيقا حتى في المخاصمة في الرأي، والمخالفة في الفكر. ولا أجد أصدق في الدلالة على عفة قلمه من قول «شوقي» في رثاء «حافظ إبراهيم» :

قلم جرى الحقب الطوال، فما جرى
يوما بفاحشة ولا بهجــاء

وهو – فوق منزلته الصحافية التي جلتها يومياته ونحو نوره – قصاص بارع. وما كان بهذا غريبا عن نظراء له في الصحافة، وزملاء قدامى في أعضاء مجمعنا الراحلين – من أمثال أحمد حافظ عوض، والدكتور محمد حسين هيكل، وإبراهيم المازني، وعباس محمود العقاد، وأحمد حسن الزيات، ومحمد فريد أبي حديد . . وبعض قصصه كما قال في مقدمة كتابه (الخيط المقطوع) : (ينحو نحو التحليل، وبعضها الآخر يعتمد على الحركة، وبعضها الثالث يصور مواقف معينة، وهي جميعا تنبع من صميم حياتنا. عرفت بعض أبطالها، وعايشت بعض حوادثها. وعشت بأعصابي في أجوائها) .

وقد تميز فقيدنا بلون من أدب المناظرة والجدل في مقالاته ويومياته، فهو لا يفرض رأيه على أحد، ولا يحتد في النقاش ليكسب القضية. ولكن الهدوء كان ديدنه في أمره كله .

وما أجمع كلامه في كتابه : (رسائل ومسائل) حيث يقول :

(ولست ألزم أحداً برأيي بل لعل من الخير إلا يلتزم أحد به، وأن يجري كل إنسان – صحفيا أو غير صحفي – على سجيته. فإن هذا الاختلاف في الاتجاه والطبيعة والتفكير هو الذي يتيح للقراء ما يتيح اليوم من ألوان صحفية متعددة، فيحصل كل إنسان على ما يريد من متاع . .) .

وبمناسبة هدوء فقيدنا محمد زكي عبد القادر في نقاشه – المنطوق لا المكتوب – أذكر أننا – نحن المجمعيين – على ما هو مفروض فينا من كبرة السن، وحنكة التجربة، ووفاء السنين المكلل بالمشيب، قد يفلت منا – أستغفر الله : أعني من بعضنا – في مجلس

المجمع وبلجانه زمام الهدوء في النقاش والجدال، على درجات تختلف قوة وضعفا ، ومشادة وملاينة ، حتى لتحكي في ذلك النوادر ... لأنه خلاف ونقاش لا يرمى إلا إلى الوصول إلى الحق والحقيقة ، فهما مناط الخلاف ، وبلوغهما هو نهاية المطاف . كما يقول شاعرنا القديم :

أدور ، ولولا أن أرى أم جعفر
بأبياتكم مادرت حيث أدور

أو كما قال الشاعر الآخر :

تقول سليمى : لو أقمت سررتنا
ولم تدر أني للمقام أطـوف

وأشهد مارأيت زكي عبد القادر يوما منفعلا في خلاف ، أو ثائرا في نقاش ، على الرغم من أنه كان يخالف ويناقش ويعارض في « لجنة ألفاظ الحضارة » التي كشفت لنا عن سواء طبعه ونقاء فطرته . ومارأيته غضبان منفعلا يوما في واحد من مجالس المجمع ، إلا في جلسة يوم الإثنين ٢١ من ربيع الآخر سنة ١٤٠٢ هـ — ١٥ من فبراير سنة ١٩٨٢ — أي قبل مؤتمر المجمع السنوي بأسبوع واحد ، وقبل وفاته — رحمه الله — بثلاثة أسابيع كوامل . وهي جلسة بلقاء مشهورة في تاريخ مجمعنا . .

لأنها كانت محل النقاش في موضوع لغوي خطير ، أثارته لجنة الأصول ، يتصل بقرار اتخذته في ضبط عين الفعل المضارع من (فعل) المفتوح العين ، بالضم والكسر معا .

ودار جـدال لغوي عنيف حول هذا القرار ، ألقيت بدلوي فيه بين الدلاء . . .

ورأيت — بعد الإشادة بالجهد العظيم الذي بذلته لجنة الأصول الموقرة — أن نعرض الموضوع على المؤتمر بمن سيشهده من إخواننا العرب ، وأن نتوقف في مجالس المجمع عن إبداء الرأي فيه . . .

ورأى شيخ القانونيين في مجمعنا (الأستاذ مصطفى مرعي) : (ألا يحال الموضوع على المؤتمر إلا وقد أبدى المجلس رأيا في قرار اللجنة) . ثم رأيت — كما هو مسجل حرفيا في مضبطة المجمع — : (أن يؤجل النظر في هذه المسألة إلى ما بعد المؤتمر . . .) وهنا دخلنا في مسألة قانونية أثارها فقيدنا ، فلما اعترض عليه من ناحية القانون بطريقة لم تعجبه رفع صوته عاليا — لأول مرة — محتجا وغضب غضبة حسبتها مضريه إلا أنها لحسن الحظ لم يهتك لها حجاب الشمس . .

ولست أيها السادة بهذه الحكاية أكشف سرا من أسرار جلسات المجمع ، وأستاذنا الرئيس الدكتور إبراهيم مدكور يعلم مدى حرصي على العمل بالحديث الشريف : (المجالس بالأمانة) . .

وقد طبعت المناقشات في محضر الجلسة التاسعة والعشرين على الآلة الكاتبة كما نقول نحن ، أو رقنت على المرقن ، كما يقول إخواننا التونسيون وأهل المغرب : وصارت علنية ، وبهذا زايلتها صفة السرية .

وانطبق عليها المثل العربي : (مايوم حليمة بسر) .

ومن فضائل فقيدنا في هذا الباب أنه كان لايتشبث بالرأى إذا بدا له وجه الخطأ فى وجهة نظره . وأذكر له فى هذا المعرض هذه الحادثة التى وقعت قبل وفاته بأيام معدودات

فقد كنا فى يوم من أيام مؤتمرنا السنوى التى لاتنسى ، نتفكه بأطايب الفكر ولذاذات الحديث ، حول مائدة سخية بأطايب الطعام .. وجرتنا شئون الحديث وشجونه إلى أن أروى قول الشاعر :

قالوا يزورك أحمد وتزوره

قلت : الفضائل لاتفارق منزله

إن زارنى فبفضله . . . أو زرته

فلفضله ، والفضل فى الحالين له . . .

وأشدت بكياسة هذا الشاعر — الذى سأذكر اسمه عما قليل — لأنه ورط صديقا له كان من أصحاب الجاه وأرباب النفوذ فى الدولة العباسية . فلم يزره الشاعر مخافة أن يتهم بتملقه إياه ، وتزلفه منه ، واعتذر بهذين البيتين البليغين . . . .

فاعترض الفقيد محمد زكى عبد القادر على بأن هذا ضرب من النفاق الاجتماعى لايحبه ! فقلت له : سبحان الله : أتسمى هذا الحشد من الكرامة والكياسة واللباقة والبراعة فى التخلص نفاقا ؟ فقال : نعم : هذا نفاق :

فلما ذكرته بأن هذا الشعر للإمام الشافعى — رضى الله عنه — وهو من هو فى علمه وخلقه واستقامة سلوكه ، سكت ولم يعقب .

ولقد أحب زكى عبد القادر الريف ، بل تعشقه ، بما فيه من سماحة الفطرة ، وأصالة الطبع ، وخصه ببعض مؤلفاته قصصية ، من أمثال (صور من الريف) و (الخيط المقطوع) و (دعاء الخطيئة) . وعبر فى تقديمه لهذا الكتاب الأخير عن حبه العميق للريف حيث يقول : (وفيه — أى فى هذا الكتاب — المزج نفسه بين صور من الريف . وصور من المدينة : الأولى تمتاز بأصالتها ، وتعبيرها عن حياة الريف بكل ما تضطرب به من خوف وطمأنينة — وحب وكراهية ، وإيمان واعتماد على الله ، وما يشيع فيها جميعاً من روح مصر العريقة التى طاولت الزمن ، وعاشت عبر القرون ذات شخصية متميزة لم تذب فيها على الرغم مما عرض لها ووقع عليها من اقتحام وغزو ، سواء فى العصر القديم أو العصر الحديث ، والفضل فى هذا كله راجع إلى تقاليد الريف التى صانت للوطن أصالته وحيويته ودفعت عنه بعد المدى الطويل أو القصير كل من طرأ عليه من الدخلاء . . .) .

ولعل (ريفية) زكى عبد القادر هى التى أفضت به إلى إيمانه التام « بالحرية » ، إلى حد أنه وضع فيها كتاباً برمته ، جمع فيه أقوال الفلاسفة والمفكرين والأحرار فى « الحرية » ولم أطرافها من أمم مختلفة ، ولغات شتى على مر العصور ، ما بين قديم وحديث . وإذا كان كتابه (الحرية والكرامة الإنسانية)

قد ضم ما قاله غيره فى الحرية منذ أن خلق الله الناس أحراراً ، إلى يومنا هذا ، فإنا ننتهـز هذه السانحة لنقتنص رأيه هو فى الحرية الذى أبداه فى تقديمه لكتاب (محنة الدستور) حيث يقول : (فالحرية هى صمام الأمان ، وهى الكفيلة أن تنمى فى الشعب الملكات والقدرات ، وتستخرج أقوى ما فيه من مزايا وفضائل . وهى قادرة بتفاعلها الصحيح مع الشعب - أن تجعله قادراً على تحمل مسئولياته ، صلباً فى الدفاع عن حقوقه واسترداد الضائع منها) .

لقد أحب زكى عبدالقادر الريف والقرية ، كما أحب الحاضرة والمدينة ، وأحب القديم كما أحب الحديث ، وأحب وطنه مصر ، كما أحب أوطان الدنيا كلها ، فقد كان مؤمناً عميق الإيمان بالتناسق فى الحياة ، وما أصدقه وهو يقول فى مقدمته لكتابه (على حافة الخطيئة) : (وما فى الحياة يبدو كأنه مختلف متناثر . هو فى حقيقة أمره متناسق متآلف مع طبيعة الحياة . . .) على أن الحياة فى تقدير راحلنا العزيز - وهو تقدير سليم - لاتكون حياة إلا بالتناقض فى المظاهر ، فلو كانت مستوية لكانت رتيبة مملة . وكثيراً ما ألمح إلى هذا المعنى فى صلب كتبه ضمناً ، وفى مقدمات كتبه صراحة ، كالذى قاله فى مقدمة كتابه (قال التلميذ للأستاذ) : (وعلى الجملة فإن الأقسام الثلاثة - فى هذا الكتاب - تمثل فلسفة فى الناس والحياة منسوبة إلى الواقع ، آخذة منه صادرة عنه . وقصارى ما أرجوه أن يثير هذا الحوار العقل للتأمل ، وأن ينعم القلب بالنبض ، والوجدان بالتعمق والنفس بالتوثب بين الرغبة فى السمو والانحدار إلى ما هو أدنى . . .) . أو كالذى قاله فى مقدمة كتابه نماذج من « النساء » : (هذه نماذج من النساء ، رسمتها من الواقع ؛ فيها سمات من تضحية تبلغ أحياناً حد القداسة ، وفيها قلق يبلغ أحياناً حد الانحدار ، ولكنها جميعاً تصور نماذج تسعى بيننا ونصادفها فى كثير من الأحيان ، وهى ، بعد ، تسرى فيها جميعاً الغريزة بنبضها السليقى والعاطفة بسموها الوجدانى . ومن الالتحام بين الاثنين تجد المرأة . . . ولكن لماذا المرأة ؟ قل : تجد الإنسان . . .) .

وهذا الإيمان بالتناقض فى الحياة هو الذى جعل من زكى عبد القادر رجلا متفائلا بالحياة ، طامعاً فى الوجه الآخر الجميل منها ، مادامت ذات وجهين ، ومادام كل وجه لا يثبت على حال ، بحكم حركة « التغير » الدائم فى الحياة . وما أرقه رحمه الله وأجمل تفاؤله وأمله العريض فى فضل الله حيث يقول من خاطرة له عنوانها « القلب وأوراق الشجر » : (تبارك الله العلى من منا يرى الورق الجاف يزهر ، والزهر القاتم يضحك ، والشجر العارى يكتسى ، ثم يجحد فضل الله أو يحسب داءه لا دواء له ، وجرحه لا برء منه ، ويأسه لاأمل فيه ؟ كلا : كلا إن الربيع الذى يجىء بالمعجزة فى الشجر الذى مات ،

والزهر الذى جف ، قادر أن يجىء بمثلها فى القلوب التى انكسرت ، والأفئدة التى انجرحت . . .) .

وها نحن أولاء نودع فى « الربيع » أخانا زكى عبد القادر . . . ولعل هذا الربيع الحزين - قادر بحكم ما فى الربيع من إعجاز الخالق المتغير - أن يصبح قلوبنا التى انكسرت بفقد زميلنا العزيز ، وأن يضمد جراحنا برحيله المفاجىء .

وبعـد :

فإن الموت حتم علينا . وقد ذهب « زكى عبد القادر » ، كما ذهب الناس من قبله ، وكما سنذهب من بعده ، لم يدم أحد ، ولن يدوم أحد . . . ولو دامت الدنيا لواحد قبلنا لما وصلت إلينا . وما أصدق الأثر الكريم القائل : (إن أمرأ ليس بينه وبين آدم حى واحد لمعرق فى الموتى) . وأختم باستحضار بعض القصيدة التى قالها شوقى فى رثاء شيخى وأستاذى فى دار العلوم الشاعر البدوى الشيخ محمد عبد المطلب ، رحمهما الله ، فهى تنطبق على زكى عبد القادر :

رجل الواجب فى الدنيـا قضى
ينصف الأخرى ويقضى ما وجب

عاش عيش الناس فى دنيـاهمُ
وكما قد ذهب الناس ذهب

أخـذ الدرس الذى لقنه
عجم الناس قديـماً والعرب

والله يرحم فقيدنا « زكى » ، ويبـارك أعماركم .

محمد عبد الغنى حسن
عضو المجمع

كلمة الأسرة لنجل الفقيد الأستاذ سمير عبد القادر

إن تأبينكم اليوم لفقيدنا الغالى وأنتم صفوة العلماء والدارسين والباحثين إنما يدل على قيمة ما قدمه الراحل الكريم لوطنه وأمته من بذل وعطاء فى علم اللغة والأدب والصحافة، كما أنه تعبير صادق عن وفائكم وتقديركم لشخصه وفكره وعلمه.

لقد كان فقيدنا العزيز يعتز أيما اعتزاز باختياره عضواً فى مجمعكم الموقر، وكان لهذا الاختيار أطيب الأثر فى نفسه، فقد عاش حياته يساهم فى تطوير اللغة العربية، ويحاول فى كتاباته اليومية فى الصحف، التقريب بين العربية بنقائها وصفائها وقوتها وأصالتها، والعربية التى تتحرك مع نبض الحياة اليومية، متمثلة فى لغة الصحافة التى تخاطب الجماهير العريضة، على اختلاف نزعاتها ومستوياتها الثقافية.

وكانت حصيلة هذه الحياة الفنية من الفكر والعلم والأدب عشرات المؤلفات التى تولى الفقيد إصدار ما يزيد عن نصفها. وكانت أمنيته أن يواصل إصدار ما بقى منها، ولكن القدر لم يمهله حتى يحقق هذه الأمنية. ونحن نعمل الآن على تكملة رسالته وتحقيق أمنيته بتجميع مخططاته التى لم تنشر تمهيداً لطبعها وإصدارها.

كما أننا نقوم إلى جانب ذلك بتجميع ما صدر من مؤلفاته فى مجلدات تضم أعماله كاملة بهدف الحفاظ على تراثه ومبادئه وفكره.

إننى أتقدم إليكم بالأصالة عن نفسى، وبالنيابة عن أفراد أسرتى بالشكر والعرفان لما أظهرتموه نحو الفقيد من مشاعر فياضة وتقدير، راجياً لكم جميعاً التوفيق فى رسالتكم الوطنية.

كلمة الختام للدكتور رئيس المجمع

سيداتى وسادتى:

باسم الزملاء أعضاء المجمع أشكر كل من شاركنا فى حفلنا هذا، وأسأل الله لفقيدنا الرحمة وحسن الجزاء وعوض أمته فيه خيراً.